

الغزو والفكرى والتيارات المعادية للإسلام

للدكتور / عبدالستار فتح الله سعيد



هذا الكتاب

قديمًا وحديثًا : كان وما زال لأعداء الإسلام تيارات معادية له تحمل بين ثناياها الفكرة والرأى والحيلة والخدعة والشبهة .

ولقد كانت تلك الثقافات والأفكار الغربية تدور جميعها حول الإسلام عقيدة ونظاماً حتى نجحت فى نشر سمومها فى المجتمع الإسلامى .

وما أكثر خطورتها فهي تتجدد دائماً عبر الأجيال بخطط مدروسة ذات اتجاهات متعددة .

وكتاب الغزو الفكرى : يبين لنا تلك الأساليب بمختلف اتجاهاتها ، وما عاد على الإسلام والمسلمين بسبب تهيئة المناخ لها ، فكانت فوضى الانحلال والانحراف فى الدين والخلق والضمير والرأى !.

لذلك : دعا المؤلف فيه إلى وقف سريان هذا الغزو ، وطالب أصحاب الاتجاه الإسلامى - على اختلاف مواقعهم - بالعمل الجاد فى مجال التربية والتعليم ، والفكر والثقافة ، من أجل إيجاد الفرد المسلم ، والبيت المسلم ، والأمة المسلمة ، باعتبار الإسلام منهجاً كاملاً من حيث هو عقيدة ، وشرعية ، ونظام ، شرفنا الله به وهدانا إليه .

دار الوقاء للطباعة والنشر والتوزيع - المنصورة - ش.م.م.

الإدارة والمطابع : المنصورة ش الإمام محمد عبده المراجع لكتبة الآداب

ت : ٢٤٢٧٢١ / ٢٥٦٢٢ / ٢٥٦٢٣

المكتبة : امام كلية الطب ت : ٢٤٧١٢٣ من ب. : ٢٣٠ تلس DWFA UN 24004



تطلب جميع منشوراتنا من :

دار النشر للجامعات المصرية - مكتبة الوقاء

٤١ ش شريف ت : ٢٩٢١٩٩٧ / ٢٩٢٤٦.٦



الغزو والفكرى

والتيارات المعادية للإسلام

للدكتور عبد السلام سعيّد

كافة حقوق الطبع محفوظة.

الطبعة الأولى : ١٣٩٨ هـ

الطبعة الثانية : ١٣٩٩ هـ

الطبعة الثالثة : ١٤٠١ هـ

الطبعة الرابعة مزيّدة ومنقّحة

١٤٠٨ هـ - ١٩٨٨ م

الطبعة الخامسة

١٤١٠ هـ - ١٩٨٩ م

دار الوقف للطباعة والنشر والتوزيع - المنصورة - ش.م.م

الإدارة والطباعة : المنصورة ش.الإمام محمد عبده الرابع لكتبة الآداب
٢٤٦٢٢٠ / ٢٤٦٢٢٠ / ٢٤٦٢٢٠

المكتبة : الإمام كلية الطب هـ : ٢٤٦٢٢٢ م.ب. : ٢٢٠ - ٢٢٠ DWFA UN 24004



مقدمة الطبعة الرابعة

الحمد لله الذي هدانا للإسلام ، وما كنا لنهتدى لولا أن هدانا الله ، وأكمل لنا الدين ، وأتم علينا النعمة ، ورضى لنا الإسلام ديننا محموداً إلى يوم الدين ، وأرسل محمداً بالهدى ودين الحق ، فبلغ الرسالة ، وأدى الأمانة ، وجاهد في الله حق جهاده ، حتى تركنا على المحجة البيضاء ، ليلها كنهارها ، لا يزيغ عنها إلا هالك ، فصل اللهم وسلم وبارك عليه ، وعلى آله وأصحابه ، ومن تبعهم بإحسان ..

أما بعد :

فمن الحقائق المتواترة — ديناً وتاريخاً — أن « الأمة الإسلامية » نمت فريد في الدهر ، أخرجها الله تعالى للناس من خلال كتابه المعجز ، ونبيه المرسل ، ودينه القيم .

ولم تكن القبائل العربية المتناحرة تملك مقدمات هذه الأمة ، ولا مقومات وجودها ، حتى في خيال شعرائهم الذين كانوا في كل واد يهيمون ، فضلاً عن درجة هذا الوجود العالمي المدهش ، الذي تأسست به حضارة ربانية باذخة ، وصار فيه لأمتنا مقام القيادة والإمامة العالمية قروناً متتابعة .

ومن هنا نشأ — في الفكر والواقع — تلازم حتمي بين أمتنا والإسلام ، باعتباره الروح الذى أمدّها بالحياة ، والنور الذى أضاء لها طريقها فى ذاتها ، وفى صراعها الدائم من أجل البقاء والاستمرار ، والتفوق والتفرد ، فضلاً عن أنه دينها الذى يحقق عبوديتها لله الواحد القهار ، وهى قضية وجودها ، بل وظيفة النوع الإنسانى التى خلق من أجلها .

وبقدر ماتعى أمتنا هذه الحقيقة يكون حظها من النجاح فى صراع المناهج والأمم ، وعلى قدر ماتنسى تنفّس فى جنباتها الأوجاع المزعجة ، حتى تعود إلى وعيها وأصولها !!.

يبد أن الناظر فى حركة التاريخ البشرى ، وقوانين الاجتماع ، وسنن التداول بين الأمم ليأخذ العجب العجاب من أحوال المسلمين المعاصرين ، وما يشيع فى حياتهم من « ظواهر » محيّرة ، غير مسبوقة فى تاريخ الناس ، ولا معهودة من أحوال البشر !!.

● فالمعهود أن تنحسر الحضارات تدريجاً ، حين تتصادم بالجديد المفيد من الحقائق ، والتجارب ، والأفكار .. ثم تندثر جملة حين تفقد مقومات وجودها واستمرارها ، مصداقاً للقانون الإلهى المتكرر : ﴿ .. فَأَمَّا الزُّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً ، وَأَمَّا مَا يَنْفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الْأَرْضِ .. ﴾ (١) سورة الرعد : ١٧ .

ولقد بادت حضارات كثيرة ، وانطوت أممها ، أو تحولت إلى

(١) الزبد: هو القدر والرغوة التى تكون طافية فوق السيل ونحوه ، وجفاء: باطلاً مرمياً به .

وجود آخر مبتوت الصلات بماضيه ، كالحضارة المصرية القديمة ،
وحضارة الفرس قبل الإسلام ... وغير ذلك كثير .

ولكن المسلمين المعاصرين قد خالفوا هذا المعهود !!

فهم الأمة الوحيدة في الأرض ، التي نُحيت عن القيادة
والإمامة ، وأُسقطت عن مدارج الحضارة ، مع أن مقومات وجودها
لاتزال قوية شامخة .

فالقرآن العظيم ، والسنة المطهرة ، والشرعة الإلهية بكمالها
وتمامها ، وهدى السلف الصالح ، والأصول والقواعد التي بناها
رجال كبار — عبر جهود خارقة — في الدين ، والعلوم ، والفكر ..
كل ذلك لا يزال حياً نابضاً ، وسباقاً غلاباً في كل مواطن الحياة ، وفي
كل صراع بين جديد المذاهب ، والمناهج ، والأفكار .

ثم « الأمة المسلمة » ذاتها لاتزال قائمة متكاثرة ، بل ومتميزة في
الأرض ، لم تنسلخ عن دينها جهرة ، ولم تتحول عنه إلى دين آخر ،
ولم يذب كيانهما البشري في أمم وشعوب أخرى ، كما حدث لغيرنا
قديماً وحديثاً !!

ورغم هذا كله أصيبت هذه الأمة في مقاتلها ، فكيف !!؟

● وأيضاً فالمعهود من تاريخ الأمة المسلمة ذاتها أنها كانت تغشاها
فترات حالكة ، تكاد تعصف بها عصفاً ، ولكنها في كل مرة كانت
تسارع إلى الاستفاقة — تحت مطارق الحزن — وتستعيد حقيقتها
الضائعة بلا تسويق ، ولا تخطيء الطريق إلى راية الإسلام ، وبذلك

تنجو من الخطر الماحق ، ويرتد الأعداء خاسرين ، كالحملات الصليبية القديمة ، أو يدخلون في دين الله طائعين كالنتار وأمثالهم .
وهنا أيضاً يخالف المسلمون المعاصرون المعهود من تاريخهم !
ففى هذه الجولة الأخيرة من الصراع طالت سكرتهم ، وطاشت فكرتهم ، وأمعنوا فى الانحدار والتردى ، رغم المحن الهائلة ، التى تكاد تقتلعهم من جذورهم ، لولا بقية من لطف الله عز وجل !!

نعم حاول « جمهور الأمة المسلمة » أن يتشبث بدينه العظيم فى ساعات العسرة ، ولكن « القوى الشريرة » التى طرأت على قيادة أمتنا قد أجهضت هذه المحاولات دائماً ، ولم تسمح بها إلا بمجرد طوق نجاه ، لامنح حياة ، أو وسيلة تحريض ومقاومة ، لاشريعة تطبيق ومعايشة ...!!

بل كان أعجب شئ فى تاريخنا كله ، أن هذه القوى العاتية — حين تمكنت — غدرت بأمتنا غدراً غير مسبوق ، إذ انطلقت تركض بها ركضاً على عكس دينها وطريقها ، وفى خطوط مبتدعة ، رسمها أعداؤنا بتدبير حقود ، وزخرفت بشعارات خداعة خاطئة !!

* * *

لقد كنت فى أوائل الشباب نتابنى حيرة شديدة من هذه الظواهر المزعجة ، والتى وصلت بالمسلمين إلى مايشبه « الردة الصامتة » فى شتى ميادين الحياة ، وصبغت حياتهم بغير صبغة الله

مثل :

- شيوع الاستخفاف بقيم الدين وشرائعه في الجملة !
 - اعتناق كثير من المثقفين مذاهب شاذة ، أو أنماط حياة ضالة ، كالشيوعية الملحدة ، أو النمط الغربي الانحلالى !!
 - الحكم بالقوانين الوضعية الوافدة ، ثم احترام وضع القوانين ولو صادمت الإسلام جهرة ، كقوانين الربا ، والخمر ، مع إهدار الحدود الشرعية جملة واحدة !!
 - تبرج المرأة المسلمة في الشوارع والمجامع كتبرج الجاهلية الأولى ، بل أسوأ بما استحدثت من وسائل الزينة والثياب ، والحلى والتساوير !!
 - شيوع أماكن الفاحشة كاللهاهى والمراقص ، ونوادى القمار والفجور ، وشواطئ العرى والمجون ، ووسائل الإعلام والإعلان والترفيه ، التى استخدمت المرأة وسيلة إفساد وإثارة ، وتبيح للغرائز الشهوانية ، فى حماية القوانين الوضعية الساقطة ، التى دمرت مظلة الأخلاق الإسلامية ، وهدمت الآداب والفضائل الكريمة التى توارثها المسلمون ، حتى فى عصور ضعفهم وانحطاطهم المادى !!
- ولقد كنت أتساءل فى حيرة مفزعة :
- متى .. وأين .. وكيف أدخل هذا البلاء الماحق على أمتنا ؟!
 - وبأى قوة استقر واستمر ..؟!
 - ولماذا يمضى بين المسلمين — الآن — فى صمت وهدوء ، رغم

مصادمته ومناقضته لصريح الإسلام والقرآن؟!

● بل كيف استعلن هذا كله استعلاناً غير مسبوق في تاريخ المسلمين ، حتى صار كأنه « المعروف » وما عداه هو « المنكر » :

● إنه الآن هو « الأصل » الذى تتأسس عليه « الدولة » فى بلاد المسلمين !

● وتقوم « حكوماتهم » المتعددة المتعاقبة على حمايته !

● ثم تجعله « القانون » الملزم لهم !

● و « العرف » العام النافذ فيهم ..!

● وبأى شيء...؟!

بسلطان الحكومة ، وبقوة شرطتها ، وتحت حراسة جيوشها ، — من أبناء المسلمين — ويدعم من أموالهم وثرواتهم ..!!

وقد تبلغ الخديعة أقصاها حين يُعلن ذلك باسم « الأمة المسلمة » على لسان طاغية مستبد جهول ، أو على لسان فريق من الناس خانوا أمانة النيابة عن الأمة ، فيما يزعمونه بالمجالس « التشريعية »!!

وأعترف أننى لم أكن أملك لأستلتي الحائرة جواباً ، ولا أعرف لعللة أمتى أسباباً ، بل إن القضية كانت تبلغ غاية التعقيد فى نفسى إذا مضيت فى التساؤل :

— أهذا شيء فرضه علينا الكفار الغزاة فرضاً؟!

— أم هو اختيار المسلمين لأنفسهم ..؟!

ذلك لأن أقرب شيء إلى الجواب أن يقال « مستحيل » .
فلا الكفار بقادرين على فرض باطلهم بهذا المقدار .. !
ولا المسلمون بقابلين هذا كله عن طوعية واختيار . !

ولكن هذا « المستحيل » كان هو الواقع الثقيل ، الجاثم على
أنفاس الأمة ، والممتد كالسرطان الرهيب إلى شعب حياتها : في
السياسة والقانون ، والاقتصاد والاجتماع ، والثقافة والتعليم ،
والصحافة والإعلام .. بل في دقائق الأشياء كألفاظ التحية ، وطرائق
الكلام والطعام ... الخ .

• • •

كانت « الردة التركية » من قبل هي ذروة المأساة في العالم
الإسلامي ، حين تولى كبرها طاغية الترك ، وفرضها على أمتنا
فرضاً ، تحت حراسة الكفار من أعدائنا ، والذين أرادوها مثالا يمكن
تطبيقه وتكراره في الأقاليم الإسلامية ، ونقله من الرأس إلى الأعضاء
تباعاً ، خاصة « مصر » التي صارت أمل المسلمين بعد إسقاط
الخلافة !!..

ولم تلبث مصر بدورها أن نكبت بحكم الطاغية البائد ، والذي
كان تطويراً بالغ الخبث للردة السابقة ، وبدا واضحاً أنه يستحث
الخطو لتدمير جذور الإسلام وبقاياه في هذه الأمة ، ولينقلها — في
ضراوة فاحشة — إلى أخطر مراحل الردة ، حيث تصبح الأباطيل
عقيدة ، والكفر فكرة ، والفسوق فلسفة ، والإلحاد مذهباً ومنهجاً
لحياة الناس ، أو على الأقل إلهاً وعُرفاً تتعايش معه الأجيال بلا
نكير !!..

فلم يكن غريباً — إذن — أن يَصَبَّ على دعاة التجمُّط الإسلامي حرباً بالغة الهول ، اتهاماً وتلفيقاً ، وتعذيباً وتشريداً ، ونفيّاً وقتلاً ، وسجناً واعتقالاً .. حتى أهلكه الله بعاره وأوزاره ، وبما جرَّه على أمتنا من هزيمة الدهر ، والتي كانت بحجم ما ارتكبه من المظالم والجرائم !!

ثم بعد مهلك الطاغية يبضع سنين — وكنا لانزال في سجونه — شاء الله تعالى أن نعاود الدرس والاطلاع ، بعد طول انقطاع وامتناع ، فأعددت « دراسات عن غربة الإسلام » ، كان هذا الكتاب — في أصوله — جزءاً منها ، ولقد جاء بغير قصد مني جواباً لكثير من أسئلتى القديمة الحائرة ، وإني لأرجو أن يكون — كذلك — جواباً عن أمثالها ، مما يتردد في أعماق كل مسلم محب لدينه ، حين يمضي في حياته ممزقاً بين الواجب والواقع ، أو مؤرقاً بين حق شرفنا الله به ، وباطل وافد في ركاب الكفار الغزاة ، مهما تبدى الآن — بعد رحيلهم — في ثياب وطنية خداعة !!!

وخلاصة الجواب في هذا الكتاب :

إن ماثموج به حياة المسلمين من فوضى وضياح ، سببه الأساسي هو : تخريب « الشخصية الإسلامية » ، ثم تربية « طبقة بديلة » مكانها ، خلفت الكفار في ديار الإسلام ، وهي التي تمضي بالمسلمين — الآن — على خط « الاستبدال » المرسوم ، في عهد « الاستقلال » المزعوم !!

ولم يتم ذلك عفواً قط ، وإنما كان عمداً وقصداً ، بعد تخطيط

بالغ الحقد ، وبغزو فكرى فاحش الوسائل والقصد ، انتهى بالامة المسلمة إلى هذا المصير المروع ...!!

ولا سبيل إلى النجاة من هذه الهاوية إلا بأمرين متلازمين :

● بناء « الشخصية الإسلامية » من جديد على معايير الإسلام .

● مطاردة آثار هذا الوباء الوافد في شعب الحياة جميعا .

* * *

إن حديثنا عن « الغزو الفكرى » — إذن — ليس ترفاً فكرياً ، ولا هو مجرد حديث عن تاريخ غُبر ودَبَر ، ولا بكاء أو استبكاء على أطلال وِدَمَن^(١) .

وإنما هو تذكير لأجيالنا الحديثة ، بأصول الكارثة التى لم يشهدوا بداياتها ، وإن كانوا الآن يدرجون على آثارها ، ويتجرعون سمومها !!

وهو تعرية للجذور القاتلة ، التى استطال نباتها فى أرضنا ، تحت خديعة « الطبقة البديلة » ، لأنهم : « من جلدتنا ، ويتكلمون بألسنتنا .. »^(٢) .

إن (أمتنا) ليست ذكرى تاريخية ماضية ، وإنما هى حقيقة حاضرة ماثلة ، ويجب أن تعود إلى مقامها الأصيل فى قيادة القافلة

(١) الدمن جمع دمنة ، وهى : آثار الناس .

(٢) جزء من الحديث النبوى الذى رواه حذيفة (البخارى ج ٨ ص ٩٢ — كتاب الفن باب كيف يكون الأمر إذا لم تكن جماعة ؟) .

البشرية الحائرة ، بعد أن شردت بها حضارة المادة والإلحاد ، وتوشك أن تدمرها تدميراً ، بفسقها ، وترفها ، وصراعها الحيوانى الغليظ !! وإن (ديننا) ليس منهاجاً مرحلياً ، أدى وظيفته فى العصور الوسيطة — كما يزعم كهنة الإلحاد المادى — وإنما هو رسالة الله تعالى الموصولة ، ورحمته المهداة لكل العصور .

ولا خيار لأمتنا فى مهمة حياتها ، ولا فى رسالة ربها ، وأول الجدل أن تخلع آثار الكفار من قلوبها وواقعها جميعاً ، حتى تعود أهلاً للشرف العظيم الذى انتدبها الله تعالى إليه ، وكلفها به فى قوله الكريم : ﴿ وكذلك جعلناكم أمةً وسطاً لتكونوا شهداء على الناس ويكون الرسول عليكم شهيداً .. ﴾ سورة البقرة : ١٤٣ .

• • •

إن الساحة الإسلامية تموج — الآن — بصراع فكرى هائل ، ومهما تعددت الأسماء والأشكال فإنها تعود إلى نمطين اثنين ، لاسبيل بينهما إلى لقاء :

الأول : النمط الإسلامى للحياة بمعناها الشامل لكل شئون الدين والدنيا ..

الثانى : النمط البشرى الوضعى الدخيل المتعدد الأسماء والأزياء !!

وهذا النمط الأخير هو الذى يملك — مع الأسف — القوة والسلطان فى ديار الإسلام الآن .. ويشكل صخوراً غاتية فى طريق

عودة الأمة المسلمة إلى أصلتها ودينها !!..

ولقد كان من فضل الله تعالى على هذه الأمة أن هيأ لها دعاة صدق ، قاموا في وجه الموجات الوافدة ، وقاوموا آثارها بقوة الإسلام ، وجاهدوها جهاداً كبيراً بالقرآن ، ولم تذهب أصواتهم أدراج الرياح ، رغم المحن والآلام ، بل أحدثت دويماً هائلاً في قلوب الأجيال الحديثة ، ودفعتهم إلى الإحساس بالتفريط ، والاستعداد النفسي للتغيير ، والإقبال البصير على دينهم العظيم ، والنفور العارم من الوباء الموروث عن الكفار !!

وهذه « ظاهرة » جديدة بالغة الخطر والأثر ، لأنها أول البوادر العملية للبعث الإسلامي المرتقب بإذن الله ، رغم ثقل الباطل ، ورغم مظاهر الانحراف البادية للعيان في كل مكان !!

ولكن هذا البعث المرتقب لا يتم — بداهة — بالأمانى والأحلام ، وإنما لابد أن يأخذ طريقه عبر سنن الله في الكون والحياة ، بالعمل الدائب ، والتزكية النفسية البالغة ، والتربية الأخلاقية الصارمة ، والصبر الطويل ، والمعرفة البصيرة بالحق والباطل ، وأبعاد المعركة الهائلة بينهما ، ووسائلها وأساليبها المؤثرة ، وقديماً قيل بحق: « رحم الله امرأ عرف زمانه فاستقامت طريقته » !

بل ما أحكم الوحي الإلهي حين استهل القرآن الكريم بالأمر بالقراءة^(١) ، والحديث عن العلم الرباني ، حتى تنبعث حركة

(١) صدر سورة العلق الآيات من ١ : ٥ .

الإسلام دائما من فهم واع ، وفقه بصير .

لذلك كان على دعاة « النمط الإسلامى » أن يصُروا أمتهم دائما بعظمة الإسلام ، وجلال حقائقه وقيمه ، وأن يوقفوها على نكارة « الأنماط الوافدة » ، وما أحدثته من تخريب وتغريب ، وكيف أدخلت علينا بالقهر والحيلة الدنيئة ، حتى تستيقظ خلايا أمتنا جميعا ، وتنشط لطرد الوباء الدخيل !!

وإذا كان من نصيحة هنا ، فلا بد من الأناة الطويلة فى معالجة هذه الآثار ، لأنها غُرِست فى حياة أمتنا عبر سنوات وأحقاب ، ولا يتصور إزالة كيد قرون فى أشهر معدودة ، أو سنين محدودة ، وإنما — مع الجد والاجتهاد — لابد من إطالة النَّفس ، والمعاناة ، حتى تتفاعل التربية خلال أجل يتفق مع السنن الإلهية ، لتقوم أمة مؤمنة ، ذات أخلاق راسخة ، تصلح لورثة الأرض جميعا ، وانتزاع زمام الحضارة من كهنة المادة والإلحاد .

إن الإسلام قَدَّرَ هذه الأمة .

والإسلام تربية والتزام .

ولا يقوم نظامه الفريد بخامل كسول ، ولا بطائش عجول ، لأنه « النمط الوسط » ، الذى يقوم على أتم عناصر الأحكام والتوازن ، والذى يتحقق به — دائما — وعد الله الحق :

﴿ وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِى الصَّالِحُونَ . إِنَّ فِي هَذَا لَبَلَاغًا لِقَوْمٍ عَابِدِينَ ﴾^(١)

(١) الأنبياء / ١٠٥ - ١٠٦ .

.وبعد :

فهذه الطبعة الرابعة من هذا الكتاب ، وقد منحني الله تعالى وقتاً لمراجعتها ، فجاءت — بفضل الله — أوفى من سابقتها ، وأكثر تحقيقاً وتعليقاً ، وأتم ترتيباً وتبويماً ، وقد أضفت إليها زيادات مهمة ، ومنها هذه المقدمة ، التي حال دون كتابتها في الطبعة الأولى سفر عاجل ، ثم حال دون نشرها في الطبعة الثانية قدر غالب ، إذ نسيها الناشر ، وأعتجلته نيران الحرب في بيروت عن انتظارها ، أما الثالثة فكانت ضمن الأعمال الكاملة لمؤتمر الفقه الإسلامي .

فالله تعالى نسأل أن يتفع بها ، وأن يتقبل من عبده هذا الجهد في سبيله ، وأن يجعل عملنا كله خالصاً لوجهه الكريم ، وأن يمن على أمتنا بالأمن والإيمان ، والخلاص مما نزل بها ، وهو حسبتنا ونعم الوكيل ...

كتبه الفقير إلى عفو الله
عبد الستار فتح الله سعيد

رمضان المبارك ١٤٠٧ هـ

مايو ١٩٨٧ م

فاتحة الكتاب

الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على سيدنا محمد عبد الله ورسوله ، وعلى آله وأصحابه ، ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين .

أما بعد :

فإن موضوع (الغزو الفكري) وما يلحق به من تيارات هو أخطر ما يواجه العالم الإسلامي في حاضره ومستقبله ، خاصة ونحن نرى آثاره قد تغلغلت في القلوب والعقول والأذواق ، وملأت على المسلمين كل شعب حياتهم ، وتركتم على وضع بثيس غير مسبوق في تاريخهم !

ومن ثم كان خليقاً بالدراسة الواعية ، والنظرة الفاحصة ، والرؤية المستوعبة ، حتى تتحدد أبعاده الرهيبة ، وتتضح ألغازه المتشابكة ، وتستبين ضراوته وجنائته على أجيال برمتها ، وقعت فريسة له ، ولا تزال سمومه تسري في كيائها كله ، ثم لاسبيل لها إلى الخلاص منه إلا بمعرفة بصيرة بالداء والدواء جميعا ، وإلا إذ اشتمرت عن الساق والساعد لتأخذ عليه طريقه من حيث سري ، ثم استشرى حتى عمت به البلوى !

ومن البين أن جهد الفرد — أو الأفراد — لا يفي كثيراً في مثل هذا الباب الخطير الذي تنوء به العصابة أولو القوة ، والذي يحتاج في مقاومته إلى جهد الأمة كلها ، وفي دراسته إلى عمل جماعي واسع النطاق والآفاق ، ليستطيع مقارعة هذا السيل العرم من الإلحاد والأباطيل ، ومنازلتها بأَمْضى من أسلحتها ، حتى يدمغها وينجي البشرية قاطبة من غوائلها .

ولذلك كان من حسن التوفيق اختيار هذا الموضوع ، وطرحه على قادة الفكر والفقهاء والرأي ، للبحث ، والدراسة ، والمناقشة ، والإفادة من خلال أعمال وتوصيات هذا المؤتمر الإسلامي الجامع^(١) وإنه لاختيار يدل على فقه وبصر بالأزمة الحقيقية التي تطوق العالم الإسلامي ، والتي تشيع الخلل في أوضاع حياته عامة ، والفقه الإسلامي منها بوجه خاص ، وقد تعرض لأوفر نصيب من مؤامرات الغزو الفكري حتى عزل عن الحياة ، واستبدلوا به شرائع وأحكاماً لم يأذن بها الله تعالى ، كما سنبين في هذا البحث إن شاء الله تعالى .

هذا وإنني أعترف سلفاً بقصوري في هذا الباب ، وما أقدمه فإنما هو جهد المقل الذي يحفزهُ شعور بخطورة التبعة ، وفضاعة الغزوة ، وفداحة النتائج التي تركتها الجاهلية المعاصرة في حياة المسلمين ، والذين يحتاجون الآن إلى كل صوت يوقظ وينبّه ، ويدعو فلولهم في أخرهم ليجتمعوا من جديد حول « راية القرآن » ، بعد أن فاتهم

(١) شارك المؤلف بهذا البحث في أعمال مؤتمر الفقه الإسلامي الأول الذي نظّمته جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية بمدينة الرياض في غرة ذي القعدة سنة ١٣٩٦ هـ .

صوت النذير العريان ، حتى اجتاحتهم عدوهم ، وفتنهم عن صميم دينهم^(١) !!

وسيكون هذا البحث في أربع نقاط أساسية : وهي

أولاً : تمهيد عام حول معنى الغزو الفكري

ثانيا : غزو قديم

ثالثاً : طور خیث

رابعاً : مراحل الغزو الفكرى

ثم نذكر بعض النتائج والمقترحات ؛ فنقول وبالله التوفيق :



(١) وقد جاء هذا في صحيح الحديث ، عن أنى موسى قال : قال رسول الله ﷺ : « إنما مثلي ومثلي ما بعثنى الله به كمثل رجل أتى قوما فقال : يا قوم إني رأيت الجيش بعينى ، وإني أنا النذير الغربان فالتجاء . فأطاعه طائفة من قومه فأدجلوا فانطلقوا على مهلهم فنجوا ، وكذبت طائفة فأصبحوا مكانهم فصبّحهم الجيش فأهلكهم واجتاحهم ، فذلك مثل من أطاعنى فاتبع ما جئت به ، ومثل من عصانى وكذب بما جئت به من الحق » (البخارى كتاب الاعتصام بالكتاب والسنة) . ج ٩ ص ١١٥ .

أولا

تمهيد عام

« الغزو الفكري » تعبير دقيق بارع ، يصور خطورة الآثار الفكرية التي قد يستتبع بها كثير من الناس ، لأنها تمضي بينهم في صمت ونعومة ، مع أنها حرب ضروس. لاتضع أوزارها حتى تترك ضحاياها بين أسير ، أو قتيل ، أو مسينخ ، كحرب السلاح أو هي أشد فتكا .

وهذا التعبير على حداثة مبناه إلا أنه قديم المدلول والمعنى ، وتنفاوت الأمم والجماعات فيه من حيث الدرجة لا النوع ، ذلك لأن الجماعات البشرية تعيش أبداً متنافسة في سبيل هدف ما : كالاعتقاد حقاً أو باطلاً ، وكالتفوق المادي أو الأدبي ، وحب السيادة والاستئثار بالمنافع ، ونحو ذلك مما عبر عنه القرآن الكريم في إيجاز وإعجاز : ﴿ أن تكون أمة هي أربى من أمة ﴾ النحل : ٩٢ .

ومن ثم تبذل كل أمة غاية جهدها لكسب هذا الصراع باليد والسلاح ، أو بالفكر واللسان ، أو بأي من أنواع المؤثرات الأخرى التي زينت للناس ، كاللأل هدية أو رشوة ... الخ .

« فالغزو الفكري » واحد من شعب الجهد البشري المبذول ضد عدو ما لكسب معارك الحياة منه ، ولتذليل قياده ، وتحويل مساره ، وضمان استمرار هذا التحويل حتى يصبح ذاتياً إذا أمكن ، وهذا هو أقصى مراحل الغزو الفكري بالنسبة للمغلوب ، وإن كان — في نفس الوقت — هو أقصى درجات نجاح الغزاة .

وسلاح هذا الغزو هو : الفكرة ، والكلمة ، والرأي ، والحيلة ، والنظريات ، والشبهات ، وخطابة المنطق ، وبراعة العرض ، وشدة الجدل ، ولدادة الخصومة ، وتحريف الكلم عن مواضعه ، وغير ذلك مما يقوم مقام السيف أو الصاروخ في أيدي الجنود ، والفارق بينهما هو نفس الفارق بين وسائل وأساليب الغزو الفكري قديماً ، وحديثاً .

ويتميز « الغزو الفكري » بالشمول والامتداد ، فهو حرب دائمة دائبة ، لا يحصرها ميدان ، بل تمتد إلى شعب الحياة الإنسانية جميعاً ، وتسبق حروب السلاح ، وتواكبها ، ثم تستمر بعدها لتكسب ماعجز السلاح عن تحقيقه ، فتشل إرادة المهزوم وعزيمته حتى يلين ويستكين ، وتنقض تماسكه النفسي حتى يذوب كيانه ، فيقبل التلاشي والفناء في بوتقة أعدائه ، أو يصبح امتداداً ذليلاً لهم ، بل ربما تبلغ حداً من الإلتقان يصل بها إلى أغوار النفس ، فتقلب معاييرها ومفاهيمها ، وتشكل لها أنماطاً جديدة في السلوك والأخلاق والأذواق ، إلى الدرجة التي تجعل المهزوم يفخر فيها بتبعيته ، ويرأها شرفاً خليقاً بالرضا والشكران أي « أن الرِّمِيَّةَ تحنفي بالرامي » كما

قال الشاعر^(١) .

ولا نبالغ إذا قلنا : إن كل جماعة بشرية (قبيلة أو أمة ، أو دولة .. الخ) قد عرفت هذا اللون من الغزو ، واستخدمته في سبيل كسب معارك حياتها الاجتماعية ، والاقتصادية ، بل والعسكرية ذاتها .

وقصص الأنبياء عليهم السلام أبلغ شاهد على ضراوة ماواجهوه من هذه الحروب الفكرية ، التي قادها شياطين الإنس وبرعوا في وسائلها من : إرجاف ، وتشنيع ، واختراع النقائص ، وإلصاق التهم ، وإثارة الجدل ، وإطلاق الشبهات ، واقتراح المعجزات تعجيزاً ، وكثرة السؤال عناداً ، حتى أساليب الاستهزاء والاستخفاف والاستضحاك لم تفهم في هذا المجال ، بغية أن يسقطوا عن الرسل الأكرمين ما يحيطهم من هالات القداسة ، والرزانة والكمال !

الغزو بالحق :

يبد أن هذا القصص نفسه يعطينا الوجه الآخر للقضية ، فيقدم لنا المبادئ والأصول ، والوسائل والأساليب الصحيحة للعمل

(١) هذا عجز بيت، قاله الشاعر شوقي في روايته الشعرية عن الملكة المصرية القديمة « كيلوباترا » وفيها تصوير دقيق لغفلة الأمم ، وقد عرفت أمتنا للأسف هذا النمط ، ومن أبرز أمثله ما جاء في كتاب « مستقبل الثقافة في مصر » للدكتور طه حسين ، وما كتبه ملاحدة الأتراك ، كما سنين بإذن الله ، ولا يزال يكتبه ويردده ببغاوات الماركسية وأمثالهم ، ويزعمونه ثقافة ، وتقدمية !!

الفكري القائم على الحق ، الهادف إلى خلاص البشر مما هم فيه من ضلالة ، وقيادتهم إلى مافيه خيرهم وسعادتهم ، بلا طلب لمجد شخصي ، أو غلب قومي ، أو شيء مما يصطرع عليه وحوش البشر .

ولقد كان من تمام حكمة الله تعالى أن جعل حجة الرسالة الخاتمة معجزة تخاطب القدر الثابت في الإنسان ، على اختلاف الأجيال ، فكان القرآن العظيم خطاباً للعقل والفكر ، يعتمد على الدليل والبرهان ، بل يوجب الفقه ، والنظر ، ويحض على التيقن والاستدلال ، ويطاول خصومه ويطالبهم بالحجة حتى في دعواهم الباطلة عن تعدد الآلهة : ﴿ .. أإله مع الله ؟ قل هاتوا برهانكم إن كنتم صادقين ﴾ التمل : ٦٤ .

﴿ قل أرأيتم مائدعون من دون الله أروني ماذا خلقوا من الأرض ؟ أم لهم شرك في السموات ؟ ائتوني بكتاب من قبل هذا أو أثارة من علم إن كنتم صادقين ﴾ الأحقاف : ٤ .

لذلك كان محور هذا الكتاب المعجز في غزو الجاهلية ، واقتلاع جذورها الغائرة ، هو التأثير النفسي ، والتغيير الفكري ، والإقناع الذاتي ، والإلزام العقلي بالحجة البينة ، والدليل المستقيم ، والكلمة الصادقة ، التي لا يملك منصف معها إلا أن يقول ما علمنا الله إياه : ﴿ قل فله الحجة البالغة ﴾ الأنعام : ١٤٩ .

وقد قرر النبي ﷺ هذه الحقيقة ، والتي تؤكد بدورها الأهمية البالغة للعمل الفكري فيقول ﷺ :

« ما من الأنبياء من نبي إلا وقد أعطى من الآيات ما مثله آمن

عليه البشر ، وإنما كان الذي أوتيته وحياً أوحاه الله إليّ ، فأرجو أن أكون أكثرهم تابعاً يوم القيامة » (١) .

وقد اشتمل هذا الوحي العظيم على أوفى تفصيل للجوانب العمل الفكري بشقيّه : الهجومي ، والدفاعي ، تعليماً للمؤمنين حتى يواصلوا الدعوة إلى الله تعالى على هدى وبصيرة ، ورداً على الكافرين والمنافقين وأضرابهم من أهل الكتاب ، وخاصة اليهود الذين احترفوا الجدل العقيم ، ومردوا على الشبهات والأباطيل .

تنديد القرآن بالغزو الضال :

وقد دمج القرآن الكريم قادة هذا اللون من الحرب بأسماء وصفات غاية في النكارة مثل : الشياطين ، والسفهاء ، والمعوقين ، والمرجفين ، وأكابر المجرمين ، وأئمة الكفر ، والذين في قلوبهم مرض .. الخ .

كذلك سمي هذا اللون ذاته بصفات أساليبه الخسيسة ، ونتائجه الخبيثة مثل : زخرف القول : والغرور ، والخبال ، والفتنة .. الخ .

ومن ذلك قوله تعالى : ﴿ سيقول السفهاء من الناس ما ولّاهم عن قبيلتهم التي كانوا عليها ﴾ البقرة: ١٤٢ .

﴿ وكذلك جعلنا لكلّ نبي عدواً شياطين الإنس والجن يُوحى بعضهم إلى بعض زُخرف القول غروراً ﴾ الأنعام : ١١٢ .

(١) رواه الشيخان وأحمد عن أبي هريرة .

﴿ لَوْ خَرَجُوا فِيكُمْ مَا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا وَلَأَوْضَعُوا خِلَالَكُمْ يَبْغُونَكُمُ الْفِتْنَةَ وَفِيكُمْ سَمَّاعُونَ لَهُم وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ ۝ لَقَدْ ابْتَغُوا الْفِتْنَةَ مِنْ قَبْلُ وَقَلَّبُوا لَكَ الْأُمُورَ حَتَّى جَاءَ الْحَقُّ وَظَهَرَ أَمْرُ اللَّهِ وَهُمْ كَارِهُونَ ﴾ التوبة : ٤٧ ، ٤٨ .

والآيتان الكريمتان نزلتا مع معظم سورة التوبة بصدد الحرب الفكرية التي تولى كبرها المنافقون في غزوة تبوك وقبلها ، من التخذيل ، والإرجاف والإشاعات الكاذبة ، والتسخط على كل ما لا يرضى أهواءهم ، والعمل على تفريق المؤمنين ، وتسريب الشبهات إلى الصفوف المؤمنة من داخلها .. الخ .

وقد بين القرآن الكريم أن نتائج وغايات هذا اللون من الحرب هي أخطر وأشد من آثار السيف والقتل ، قال تعالى : ﴿ وَالْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ الْقَتْلِ ﴾ البقرة : ٢١٧ .

والعبارة الكريمة جاءت في سياق ما نزل من الآيات رداً على قريش ومن والاه ، ممن شنعوا على المسلمين لأنهم قاتلوا في الشهر الحرام ، مع أن حرمة محل اتفاق واحترام من الجميع .

وقد نزل القرآن الكريم ليقرع هؤلاء النائحين المتباكين على حرمة الشهر ، وهم ينتهكون كل حرمة ، ويعبثون بكل القيم ، فصار بين خطأ وقع من بعض المسلمين عرضاً — لا غرضاً — وبين خطأيا المشركين الصادين عن سبيل الله ، الملحددين في حرمة بنصب الأوثان ، ومطاردة أهل الإيمان ، ثم يعقب على ذلك بقوله : ﴿ وَالْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ الْقَتْلِ ﴾ .

والفتنة قد يراد بها الشرك والكفر ، وقد يراد بها كل الأساليب المؤدية إلى ذلك من تعذيب المؤمنين في أبدانهم ، أو الحجر على حرياتهم وأرزاقهم ، أو تشريدهم في البلاد بعيداً عن الأهل والوطن ، أو مطاردتهم في كل واد حتى لا يهنأ لهم عيش أو يستقر بهم مقام ، أو ضربهم بالشبهات وألوان التشكيك حتى يتزلزلوا معنوياً كما زلزلوا مادياً ، وكل هذا وأمثاله قد يكون أصعب وأشق على النفس من القتل الذي قد يستريح به المرء من العناء ، ومعاناة القتل البطيء ، وهو حي يرى ويسمع ، ولا يأمن على نفسه الرّدة — تحت وطأة المحنة — التي هي غاية الغايات لوسائل الفتنة المذكورة !

ولهذا عَقَّبَ الله تعالى على هذا بقاعدة تمثل قانوناً من قوانين الصراع بين الإسلام والجاهلية على مر العصور فقال تعالى : ﴿ وَلَا يُزَالُونَ يُقَاتِلُونَكُمْ حَتَّى يَرُدُّوكُمْ عَنْ دِينِكُمْ إِنِ اسْتَطَاعُوا ﴾ . والقتال المذكور هنا عام يراد به ما وقع فعلاً من الأساليب السابقة ، وما هو محقق الوقوع في الغد القريب من الحرب المسلحة ، التي شنها المشركون على المسلمين بعد نزول الآيات ، ثم ما يشابه ذلك ويشاكله إلى يوم القيامة .

* * *

على أنه في الجانب الآخر كان النبي ﷺ وأصحابه يقارعون المشركين بكل فنون الحرب الفكرية المتاحة لهم ، وكان عمادها الأكبر آيات القرآن الكريم ، ومحاوراته مع المشركين والمجادلين بما لها

من أسلوب فذ ، بذ الشعر والنثر وسائر ما يعهده العرب من فنون القول ، من حيث المبني والمعنى جميعاً ، لذلك كان ألد أعدائه لا يطبقون طويلاً كتبان إعجابهم به ، وإن اختلفت مذاهبهم في واقع الحياة بين : ماضٍ على عناده ، أو متجاوب مع إعجابه ، وملق قياده لهذا الكتاب المعجز ، ولهذا كان زعماء المشركين أنفسهم لا يفلتون من دائرة إشعاعه وتأثيره ، فكانوا — كما ورد في السيرة — « يتسمعون إليه خفية » والنبي ﷺ قائم يصلي به ، ثم تواصلوا ألا يفعلوا خشية على أنفسهم ، وقومهم من تأثير هذا الكتاب الغلاب .

ولهذا أيضاً حجرت قريش على أبي بكر رضي الله عنه أن يصلي في فناء داره ، لأنه كان رجلاً رقيقاً بكاءً إذا قرأ القرآن ، فيتقصف عليه نساء المشركين وأولادهم يتسمعون .

ولقد كان من مهمة البلاغ على النبي ﷺ أن يسمع الناس جميعاً ما أنزل عليه ، لذلك دأب ﷺ على غزو المشركين بالقرآن ، يغشاهم به في منازلهم ، ومضاربهم ، وأسواقهم ومجامعهم ، وحجهم .. الخ .

وإلى هذا يشير قوله تعالى : ﴿ فلا تطع الكافرين وجاهدوهم به جهاداً كبيراً ﴾ الفرقان : ٥٢ .

ثم لما هاجر ﷺ ، ووجد الأعوان والأنصار توسع في استخدام أساليب العمل الفكري ، فاستعمل سلاح الفكر العربي على أوسع نطاق ، كالشعر والخطابة ، مع طبعهما بالنمط الإسلامي ، وقد كان ﷺ يسر غاية السرور بمن يسلم من الشعراء ، كالنابغة الجعدي ،

وكعب بن زهير ، وكان يضيق صدره — على حلمه — بالسنة
الشعراء القادحين في الإسلام من مشركين ويهود ، إدراكاً منه ﷺ
في الحالين بخطورة هذا اللون الفكري في التأثير على الناس ، وجذبهم
للإسلام ، أو دفعهم عنه .

وقد ثبت أنه ﷺ قد اختار خطيباً من الأنصار هو ثابت ابن
قيس ؛ واختار شاعراً هو حسان بن ثابت ، وكان ﷺ يحتفي به
كثيراً ، ويحثه على الدفاع عن الإسلام والمسلمين ، وينصب له منبراً
في المسجد ، ويقول له مامعناه : أجب عني ، اللهم أیده بروح
القدس^(١) ، وقد أحاله إلى أبي بكر رضي الله عنه ليستفيد بخبرته في
أنساب العرب وقریش^(٢) .

ولذلك وفق حسان رضي الله عنه في هذا الباب غاية التوفيق ،
وكان شعره كما جاء في الأثر : أشد وقعاً على الكفار من السهام في
غيش الظلام ، وكانت القصيدة منه تقوم أحياناً مقام الكتبية ، وقد
توسع في هذا الأمر حتى إن شعره ليعد سجلاً نابضاً لأحداث صدر
الإسلام ، بحيث لانكاد نجد واقعة إلا وله فيها الآيات أو القصائد
التي تسير بها الركبان ، دفاعاً عن الإسلام ونبیه وأتباعه ، وتنديداً
بالجاهلية وأربابها وأعرافها ، ورداً على المناوئين للإسلام بألسنتهم أو
أسلحتهم ، وتحريضاً على الغادرين .. الخ .

وفي كتب الحديث والسيرة نجد من ذلك فضلاً زائراً ، ونجد

(١) انظر البخاري ج ١ ص ١١٦ (كتاب الصلاة ، باب الشعر في المسجد) .

(٢) راجع ترجمة حسان رضي الله عنه في كتاب ه أسد الغابة في معرفة الصحابة .

عبارات حسان اللاذعة القارعة التي كانت تهز أعداء الإسلام هزاً أليماً ، كشعره في « قريش » قبل الفتح ، وشعره في « هذيل » لما غدرت بأصحاب الرجيع الذين بعثهم رسول الله ﷺ دعاة ومعلمين ، وقد أكثر حسان في ذلك وأوجع^(١) .

وقد أجاد بعض المعاصرين في تصوير آثار هذا العمل الفكري الذي قام به حسان رضي الله عنه ، والذي لم يقل خطراً ولا أثراً عن الأعمال الحربية يقول :

أرأيت منبراً النبي يقيمه فيقوم حسان يرجح المسجدا
ويذود عن شرف النبي ودينه ويبين للإسلام نهجاً أجمداً
فترى الجزيرة رُوعت أو وادعت حتى كأن على الأعتة خالداً

والحديث في هذا يطول ، وإنما غرضنا هنا الإشارة والتنبيه ، وتاريخ العالم كله حافل بالأمثلة والشواهد على خطورة الغزو الفكري ، الذي يبرز أحياناً فيكون أقوى عامل في حياة الأمم ، وأحداث التاريخ ، أو يكون على الأقل نذيراً بين يدي عظماء الأمور ، كما قال نصر بن سيار والي (مرو) حين رأى نذر الثورة في خراسان على دولة بني أمية :

أدى بين الرماد وميض نار وأخشى أن يكون له ضرام
فإن النار بالعودين تذكو وإن الحرب مبدؤها كلام
فقلت من التعجب ليت شعري أليقظ أمية أم نيام ؟

(١) راجع سيرة ابن هشام ج ٣ ص ١٨٩ وما بعدها .

ثانياً

غزو قديم

ومع الأسف انطبق هذا القول على أمتنا الكبيرة ، فكما نامت أمية من قبل ، نامت هذه الأمة العظيمة ، عبر أجيال طويلة وبطيئة ، ودب إليها ديب الأمم ، وتسرب إليها وهن كثير ، صرفها عن مصدر قوتها وعظمتها ، وعن سرّ تفوقها وسعادتها .

وكان في مقدمة الأسباب التي أوهت هذه الأمة تسرب الثقافات والأفكار الغربية إليها ، وشيوعها في جوانبها ، رغم مجافاتها الصريحة أحياناً لمعايير الإسلام وروحه ، ورغم التحذيرات القرآنية والنبوية الصارمة ، والتي من أجمعها قوله ﷺ لما رأى في يد عمر رضي الله عنه صحيفة نقلها عن بعض أهل الكتاب : « لقد أتيتكم بها ببيضاء نقية ، فلا تتهوكوا ، ولا يفرنكم المتهوكون » (١) .

الإسرائيليات والفلسفات :

والعجيب أن هذه الأمة العظيمة تهوكت في مجاهل

(١) الحديث في قصة طويلة رواه أحمد وغيره ، والتهوك الوقوع في الأمر بلا روية ، وقيل معناه التحير .

(الإسرائيليات) التي غصت بها فنون الثقافة حتى في تفسير القرآن الكريم .

ثم غرّها المتهوكون حين ترجموا (الفلسفة الإغريقية) وغيرها وسربوها إلى لباب العقيدة نفسها ، واتخذوها وسيلة (راقية) — في زعمهم — للفكر ، ومناقشة مسائل التوحيد والإلهيات ، رغم أنها فلسفات وثنية في جملتها ، وتجافي مقررات الوحي عن حقائق الغيب !!

وبهذا البلاء الطافح مرج على الأمة أمر دينها ، وابتعد الكثير منها عن هدى الكتاب ، وسمت النبوة ، والتبس السبيل على الراعي والرعية .

قال ابن درباس : وقد أكثر أهل الزيغ القول على من تمسك بالكتاب والسنة أنهم مقلدون ، وهذا خطأ منهم بل هو بهم أليق ، وبمذاهبهم أخلق .. لأن هؤلاء نسبوا ذلك إلى التنزيل ، وإلى متابعة الرسول ، وأولئك نسبوا إفكهم إلى أهل الأباطيل ، فازدادوا في التضليل ، ألا ترى أن الله أثنى على يوسف حيث قال : ﴿ إِنِّي نَزَّلْتُكَ فِي مِثْلَ قَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ ۖ وَاتَّبَعْتُ مِثْلَ آبَائِي إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ مَا كَانَ لَنَا أَنْ نَشْرِكَ بِاللَّهِ مِنْ شَيْءٍ ... ﴾ الآية ، فلما كان آباؤه عليهم السلام أنبياء متبعين للوحي وهو الدين الخالص الذي ارتضاه الله ، كان أتباعه آباءه من صفات المدح ، ولم يجيء فيما جاءوا به ذكر الأعراض ، وتعلقها بالجواهر ، وانقلابها فيها ، فدل على أن لاهدى فيها ، ولا رشد في واضعيها .

وقال ابن الحصار : إنما ظهر التلفظ بها زمن المأمون بعد المائتين لما ترجمت كتب الأوائل ، وظهر فيها اختلافهم في قدم العالم ، وحدوثه ، واختلافهم في الجوهر وثبوته ، والعرض وماهيته ، فسارع المبتدعون ومن في قلبه زيغ إلى حفظ تلك الاصطلاحات ، وقصدوا بها الإغراب على أهل السنة ، وإدخال الشبه على الضعفاء من أهل الملة ، فلم يزل الأمر كذلك إلى أن ظهرت البدعة ، وصار للمبتدعة شيعة ، والتبس الأمر على السلطان حتى قال الأمير بخلق القرآن ، وجبر الناس عليه ، وضرب أحمد بن حنبل على ذلك .

فانتدب رجال من أهل السنة كالشيخ أبي الحسن الأشعري ، وأبي عبد الله بن كلاب ، وابن مجاهد ، والمحاسبي ، وأضرابهم ، فحاضوا مع المبتدعة في اصطلاحاتهم ، ثم قاتلوهم وقتلوهم بسلاحهم .. «^(١) .

انحراف علم الكلام :

ولقد كان من المقبول أن يستمر هذا العلم على هيئته التي نشأ عليها ، يدافع عن العقيدة الإسلامية بأساليب الشبهات المحدثه ، شريطة أن يلزم حدوده الدفاعية فقط ، وبذلك يكون علماً نافعاً يستطيع أن يجدد نفسه كلما استحدث أهل البدع والإلحاد جديداً من الأقاويل والأفكار .

(١) تفسير الإمام القرطبي ، الجامع لأحكام القرآن ، عند الكلام على الآية رقم ١٧٠ من سورة البقرة ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُم اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا لَفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا ﴾ .

ولكن المؤسف أن هذا العلم تحول من وسيلة دفاع ، إلى أصل تقرر العقائد من خلاله ، وتلتبس لها الأدلة من جدلياته ونظرياته ، ومن ثم أخذ سمة الثبات الفكري ، وتوطد سلطانه ، وأصبح يتلقى بالاحترام والتسليم شأن القوانين ، والأصول المحكمة ، التي لا يتطرق إليها النقد ، فضلاً عن الشك ، والنبد .

ولاريب عندي أن هذا كان إحدى الكبر ، والجنايات الفاحشة على مجتمعات المسلمين ، عامتهم وخاصتهم ، ذلك لأن علماً جدلياً فلسفياً لا يمكن بحال ما أن ينشئ عقيدة ، أو يفرس إيماناً ، أو يحرك وجداناً ، وإنما حسب (إن أمكنه) أن يكون وسيلة دفاع — بعد النص المنقول عن الوحي — ضد من يثير الشبهات .

● فمرتبته إذن تالية ، لاتأتي إلا بعد أن تقرر العقيدة على منهاج الوحي ، وبأدلتها الخاصة ، وبوسائله وأساليبه المتفردة .

● ومكانه إذن خاص ، لا ينبغي أن يجاوز حلقات الدرس ، والتخصص لمن يعدون لهذا الأمر ، ليقوموا بواجب كفاي عن أمتهم .

● ووظيفته إذن دفاعية محضة ، متجددة مع الأنماط الفكرية التي يثيرها الملاحدة في كل جيل ، ملونة بلون عصرها وبيئتها .

أما أن يقدم ، ويتخذ أصلاً ثابتاً ، ومدخلاً عاماً فهذا ما يأباه الإسلام ، ويرفضه القرآن باستدلاله المعجز^(١) .

(١) راجع تقرير هذا المعنى تفصيلاً في رسالة : « نظرات في الاستدلال القرآني » ص

٢٨٠ ، ١٨

ومن العجيب أن كثيراً من مراكز التعليم الديني لا تزال تدور في
مناهات هذا الخلل الفكري الذي انتهى زمانه ، فهي لا تدرسه دراسة
تاريخية مجردة ، إنما دراسة تقريرية ، لتثبت به العقائد ، والأصول
الدينية العليا ، بينما اندثرت الفرق التي صنعت جدلياته ، أو قامت
حولها ، بل نقض الفكر المعاصر نفسه كثيراً من مصطلحاتها
وأقوالها ، وجاء بمجديد من القول والنظر ، طعناً في الدين كله —
والإسلام منه بوجه خاص — مما يستوجب الدراسة والتحقيق
والتفنيد ، لأنه يشكل واقعاً حياً متحركاً ، فاحش الخطر والأثر ،
وسنعرض لبعض ذلك في الصفحات التالية إن شاء الله تعالى .

العلم غير الثقافة :

على أنه ينبغي التنبيه إلى الفارق الخطير بين العلوم والثقافات
فالعلم الذي يأتي نتيجة التجارب الصادقة ، والنظر الصحيح هو نتاج
أُمِّي يتأثر فيه اللاحق بالسابق ، لينقله إلى غيره بدوره .

والثقافات الفكرية النظرية هي نتاج خاص بأمتها ، وقد تكون
ضرباً من الأساطير والخرافات ، أو تكون في أحسن صورها تعبيراً
عن خصائص أمتها وظروفها ، لاتصلح لغيرها ، بل ربما كانت أفسد
الأشياء لغير قومها وبيئتها .

وقد جمع الإسلام — بفضل وجهته العالمية — عباقرة الأمم في
صعيد واحد ، فتضافروا على إخراج حضارة زاهرة ، واستفادوا من
علوم السابقين بقدر ما أفادوا الدنيا بعد ذلك .

دورة الجمود الحضاري :

ولكن المسلمين دخلوا في مرحلة « الجمود الحضاري » الذي ظهر فيهم بوضوح في القرن العاشر الهجري وما تلاه نتيجة عوامل كثيرة مثل : الاستبداد السياسي ، والمظالم الاجتماعية ، وإهمال السَّير والنظر وعلوم الحياة ، مما عطل فيهم روح الابتكار ، وأفقدتهم نزعة الحركة والتجديد ، وأفقدتهم عن الاجتهاد والتفتح ، وجعلهم وقوفاً في أماكنهم يجترئون آثار حضارتهم القديمة ، ويدورون حول إرثهم العظيم ، ينفقون منه ، ولا ينمونه مع حاجات الحياة المتجددة ، حتى وصل الأمر إلى درجة احتقار دراسة التواريخ ، ومعرفة البلدان والأقاليم ، وعُدَّ ذلك بدعة في الدين ، أو مضيعة للوقت في عبث عقيم !

خمول الفكر والفقہ :

ومن الناحية العلمية أدى هذا إلى ركود الفكر ، وخمول جذوة النظر ، والبحث ، والاجتهاد ، فالتزم علماء الأمة ومفكروها دائرة الحواشي والمآثور ، وعكفوا على نصوص السابقين وكتبهم ، ينزلونها أحياناً منازل العصمة والقداسة ، وينفقون الأعمار في حل ألفاظها ، ويبدلون غاية الجهد في الدفاع عنها ، ورد مايرد عليها ، ويرتكبون في ذلك غاية التكلف واللجاج .

ولقد كان من أخطر ضحايا هذا الوضع هو « الفقه الإسلامي » نفسه الذي يقوم في أساسه على سعة الاجتهاد ، وحسن النظر ،

وصحة الموازنة والتجرد من الهوى والتعصب الفكري الذميمة ، بل هو في معناه ومبناه يعتمد على فهم الأمور ، والنفاذ إلى لبابها ، وتنزيل الوقائع الحادثة على قواعد الدين الثابتة ، ونصوصه المحكمة .

ولقد كانت أوضاع المجتمع نفسه — بحكم الجمود العام — تدفع النابغين. أنفسهم إلى جانب الخمول والركود ، وتتغلب على التوهج الفكري ، الذي كان ينبثق في جنبات هذه الأمة الكبيرة مصلحاً ومجدداً ، فلا يلبث أن تضع آثاره العظيمة ، أو تخبو ، ويقبع أصحابه عاجزين عن الإصلاح رغم إدراكهم لحقائق الأمور .

وفي مجال الفقه والاجتهاد — على سبيل المثال — نجد هذه المحاورة الغنية عن التعليق ، لدلالاتها البالغة :

« سأل أبو زرعة شيخه البلقيني قائلاً : ماتقصير الشيخ تقي الدين السبكي عن الاجتهاد وقد استكمل آله ؟ فسكت البلقيني . فقال أبو زرعة : فما عندي أن الامتناع عن ذلك إلا للوظائف التي قدرت للفقهاء على المذاهب الأربعة ، وأن من خرج عن ذلك لم ينله شيء من ذلك ، وحرم ولاية القضاء ، وامتنع الناس عن إفتائه ، ونسبت إليه البدعة !

فابتسم البلقيني ووافقه على ذلك » (١) .

* * *

(١) يراجع في هذا كتاب « فقه السنة » للشيخ سيد سابق ج ١ ص ١٨ .

ثالثاً

طور جديد خيـث

النهضة الأوروبية :

ومن سوء حظ البشرية عامة ، والمسلمين خاصة أنه في هذا الطور من الضعف بدأت عناصر الغلب والقوة تتوثب صاعدة في أوروبا ، بعد نوم طويل ، فأخذت تركز في مدارج العلم والحضارة ، وتلقفت الراية من المسلمين أنفسهم لتبدأ بها دورة من دورات الحضارات الكبرى في التاريخ .

وكان من أهم أسباب هذه اليقظة أمران :

الأول : تلك الروح الدافعة التي بثها الإسلام وحضارته في أرجاء العالم ، فأخذت تسري في أوصاله مجددة حياته وقواه ، وقد تلقتها أوروبا عن المسلمين إبان الحروب الصليبية في الشرق ، وعن طريق حضارة الأندلس العظيمة في الغرب .

الثاني : التمرد على الكنيسة الجاهلة ، ونبذ سلطانها السياسي والدني بـكل مايمثله من خطايا وأخطاء ، وحجر على الفكر ، وكبت للعلم ، واضطهاد للعلماء باسم دين الكنيسة الزائف .

الحقد على الإسلام :

ولقد كان من أخطر جنايات هذه الكنيسة دعايتها الكاذبة ضد الإسلام طوال الحروب الصليبية وبعدها ، وتصويرها له بصورة الدين الوثني المتخلف المنحرف ، مما عبأ النفس الأوروبية عامة بعقدة الكراهية العارمة ، والمقت البالغ للإسلام والمسلمين يتوارثونها كأنها من المسلّمات البديهية بلا فهم ولا تمييز ، ولا تنزال هذه الروح سارية في أغوار النفس الأوروبية إلى يومنا هذا ، ولعل هذا أحد الأسباب الأساسية التي حالت بين أوروبا والإسلام ، حتى بعد تمردتها على الكنيسة ، فارتدت إلى أصولها الوثنية ، وأحييت تراث الرومان واليونان القائم على إلحادية مادية ، فصارت أوروبا بذلك أعجب مركّب حضاري ، أخذ من الإسلام روحه الحضارية ، ومن اليونان والرومان مثله وقيم حياته الجديدة ، التي قامت على أنقاض مجتمع الكنيسة ودينها المهزوم .

ومن العجيب أن هذه الحضارة حين تمت لها الجولة ، أخذت تتعامل مع العالم الإسلامي بروح هي خليط من هذه المتناقضات ، فكانت ملحدة في كل شيء ، إلا مع المسلمين فهي صليبية مسيحية تتحالف فيها الدولة « العلمانية »^(١) مع الكنيسة ، ويقوم فيها الرجل بدور الراهب المبشر . والعالم المستشرق ، والجاسوس المحترف في آن

(١) نسبة إلى العلم المادي الذي لا يؤمن بالغيب الديني ، ويكفر بما وراء المادة : (Secular) فهي = اللادينية ، أو باصطلاح القرآن المعجز : « الجاهلية » لأن العلم الحديث نفسه أسقط كل دعاوي « العلمانية » التاريخية ، وإن كانت لا تنزال تطبيق في واقع الحياة امتداداً لسطوة الإلحاد في القرنين الماضيين .

واحد أحياناً .

ولما جان لهذا الطور الحضاري المتفوق أن يمتد خارج حدوده المحلية وقع معظم امتداده على العالم الإسلامي المواجه له ، وأخذ شكل الغارة الشاملة ، وكان الغزو في هذه المرة مأكراً عنيداً ، إذ وعى قاداته تماماً مكامن القوة والضعف في نفوس المسلمين ، وعرفوا دور الإسلام الخطير في حياة أتباعه ، وكيف هزمهم في كل مرة كان فيها حاضراً شاخصاً ، وكيف تغلبوا على أتباعه كلما رث في نفوسهم ، وضعف تمثلهم له .

ولذلك استهدف هذا الغزو الفاجر كل شيء : الأرض والناس ، والثروات والعقول ، والمعادن والعقائد ، والأخلاق والأذواق ، والعادات والأفكار .. الخ .

ولقد كانت جنائته على قيم هذه الأمة ومثلها أفدح — بما لا يقاس — من جنائته على الأموال والثروات ، رغم جسامته من انتهبه منها .

ولذلك كان تركيزهم على مهاجمة الإسلام ، والعمل الدائب على التشكيك فيه ، وتنحيته عن مجالات الحياة الأساسية ، وتتبعه حتى في داخل النفس بالطمس والتشويه !

التزوير الفكري المنظم:

وقد برعت هذه الحضارة الغازية في أساليب الغزو الفكري وتأصيل المناهج الضالة ، وعرضها عرضاً مغرياً ، واستخدام كل

تجاربها العلمية وطرائقها الحضارية في بهرجة ذلك وتدعيمه ، حتى
لتعد وسائل الأمم والحضارات السابقة فناً ساذجة إذا قيست بما
استخدمته — ولا تزال تستخدمه — الجاهلية المعاصرة من فنون المكر
والخداع والتضليل ، والتي تقف وراءها أجهزة مدربة عاتية
لتأصيلها ، وفلسفتها ، والتخطيط لها ، وإعداد برامجها ومناهجها ،
ومتابعتها بالتنفيذ والرصد والتعديل ، والإحصاء والمقارنة والتحليل ،
حتى ليصدق عليهم تماماً ما وصف به الشاعر حافظ إبراهيم الاحتلال
الانجليزي :

لقد كان فينا الظلم فوضى فهُذبت

حواشيه حتى بات ظلماً منظماً

وهذا الغزو المنظم المدروس يستخدم القصة ، والتمثيلية ،
والمرح « والسينما » ، والإذاعات بأنواعها ، والكتب والمجلات ،
والصورة والمقالة ، حتى الطرائف والملح الشائعة لا يتأخر في استعمالها
لكسب قضاياه ، وتحقيق أهدافه ، والوصول إلى ما يسمونه هم
أنفسهم بعمليات (غسيل المخ) ، و (زرع ذاكرة) جديدة في
رؤوس الأجيال ، لتنشأ على ولاء فكري ونفسي للغرب ومثله
وحضارته !

ولقد كانت نتائج هذا الغزو — فعلاً — ضارية ومروعة ، إذ
نجحت في تنشئة الأجيال على حب الغرب ، والتسبيح بحمده ،
والفناء العميق في مناهجه وأساليبه « وطريقة عيشه » في الحياة كما
يقول المؤرخ الانجليزي (توينبي) !

وما كان لأوروبا أن تصل إلى معشار هذه النتائج ، ولو ظلت
ألف سنة تحمل السلاح ، وتقذف بالجيش ، وتنتصر في الحروب .
وما أصدق الشاعر الهندي المسلم حين عبر عن هذا بما يقطر
مرارة وأسى ، فيقول :

« يا بلادة فرعون ! الذي لم يصل تفكيره إلى تأسيس الكليات ،
وقد كان ذلك أسهل طريق لقتل الأولاد ، ولو فعل ذلك لم يلحقه
العار ، وسوء الأحدث في التاريخ ! »

بل ما أصدق أن نقول : إن ما وصلت إليه هذه الحروب الخبيثة
كان أكبر وأشد من القتل ، لأنها فتنت أجيالاً متتابعة من المسلمين
فتنة عارمة ، وتركتهم على الردة الصامتة ، البالغة غاية النكر حين
دثروها لهم بثوبي زور ، ودلسوها عليهم باسم التقدم والحضارة ، ثم
بلغت الغفلة غاية مداها حين قابل المسلمون ذلك بالإقبال ، وقد كان
خليقاً أن يستثير فيهم عزائم النزال والقتال ، والتأني والاستعصام ،
وسيتضح ذلك في الصفحات التالية إن شاء الله تعالى .



رابعاً

مراحل هذا الغزو

لقد مر هذا الطور من الغزو الفكري بمرحلتين أساسيتين ،
تبعتهما النتيجة الطبيعية لكل غزو متقن الأساليب ، وهي ما عليه
أوضاع المسلمين الآن من تجانف عن الإسلام ، وميل إلى شتى
الطرائق الضالة على ما نعرضه في الصفحات التالية إن شاء الله تعالى .

المرحلة الأولى

الغزو الفكري في فترة الانحلال

كانت هذه المرحلة تمهيدية ، قصد بها تجهيز الفريسة ليسهل الانقضاض التام عليها ، والاستيلاء الكلي على مقدراتها .

وكما قلنا كان الغزاة الجدد قد استوعبوا دروس الجولة السابقة ، ووعوا إلى درجة اليقين مكانن القوة في نفوس المسلمين بهذا الدين ، ولذلك جعلوه هدفهم المباشر ، وركزوا عليه الضربات في عنف وضراوة وتسديد لا يكاد يخطئ أو يفتر ، مع ما استحدثوه من براعة الأساليب ونعومة المداخل ، بعد أن عز عليهم قهر هذا الدين بالقوة المسلحة طوال قرون .

ولقد وافق هذا السعي الخبيث دخول المسلمين في فترة ضعف وانحلال حضاري عام ، ولذلك استقبلوا بواكير هذه المرحلة وقلوبهم شتى ، وهذا أول الهزيمة ، ثم لم يكونوا جميعا — وخاصة قادتهم — على وعي وثيق بمصدر قوتهم الحقيقي كوعي أعدائهم لهذه الحقيقة ، وهذا لب الهزيمة لأنه سهل مهمة العدو الغازي في تصويبه المبكر لقلب المفاهيم وتشويه الحقائق ، وإثارة الشبه والشكوك ، وخاصة في

نفوس وقلوب الطلائع المستترة ، والمرشحة في غدها لقيادة أمتها في شتى مجالات الحياة .

الغزو الفكري امتداد للحروب الصليبية :

يذكر « ادوين بلس » في كتابه (ملخص تاريخ التبشير) أن « ريمون لول » الأسباني هو أول من تولى التبشير بعد أن فشلت الحروب الصليبية في مهمتها ، فتعلم (لول) اللغة العربية بكل مشقة ، وجال في بلاد الإسلام ، وناقش علماء المسلمين في بلاد كثيرة .

ثم ذكر تحريك البارون « دوويتز » ضمائر النصارى عام ١٦٦٤ م إلى تأسيس مدرسة كلية تكون قاعدة لتعليم التبشير المسيحي ، وتعلم فيها لغات الشرق للطلاب الذين يناط بهم أمر التبشير .. (١) .

وكما قدمنا صحب ذلك بوادر النهضة الأوروبية ، وصراعها الهائل مع الكنيسة ، وانتهى بما هو معلوم من هزيمة الكنيسة ، وقيام الدول الأوروبية على أساس (لاديني) أو مايسمونه : « بالعلمانية » !

ولما تطلعت هذه الدول إلى إعادة الغارة على العالم الإسلامي ،

(١) راجع تفصيلاً وافياً عن ذلك في كتاب « الغارة على العالم الإسلامي » ص ٢٧ وما بعدها فصل تاريخ التبشير ، حيث يذكر اشتراك أم أوروبا كلها في هذا الغزو التبشيري المبكر !

عمدت إلى دراسة موسعة عن الحروب الصليبية ، ومعرفة تجاربها وأخطائها .. إلخ .

وكذلك توسعت في دراسة أحوال المسلمين من حيث اللغات واللهجات ، والمذاهب ، والطوائف ، والفرق .. إلخ ، ثم في دراسة الإسلام نفسه من حيث هو دين ، ومصادر ، وتاريخ ، وكان ذلك كله بقصد خدمة أهداف الحملات المرتقبة .

ولم يكن هذا العمل فردياً ، ولا عفويةً في هذا الطور ، وإنما كان يقوم على إعداد صبور ، وتخطيط دعوب ، وتدبير حقود يستهدف غاية مزدوجة هي : تدمير الإسلام ، وقهر المسلمين ، وامتصاص ثرواتهم ، وتحويل مسارهم في الحياة !

الكنيسة تحالف الإلحاد :

وكانت تقف وراء هذا النشاط المحموم جهتان هما : الكنائس الأوروبية بكافة مذاهبها ، والدول الطامعة بكافة قومياتها وأنواعها ، وربما كان هذا الهدف الخطير ، هو الشيء الوحيد الذي تجتمع عليه الدولة والكنيسة بعد هزيمتها وعزلتها ، ولذلك تعاونوا وتعاضدا كل لخدمة غرضه الخاص ، أو لخدمة الغرضين جميعاً ، حتى كان كثير من القساوسة والمبشرين يعملون مباشرة لخدمة دول الاحتلال ، تحت ثياب الاستشراق والبحث العلمي ونحوه ، وبنفس القدر كانت الدول تدعم حركات التبشير وتمهد لها كل السبل خارج بلادها فقط .

» ومنذ البداية كان هناك تجاوب متبادل ، إن لم يكن هناك تماثل

في القصد بين المستشرق الأكاديمي والمبشر الإنجيلي .. وعاش التحالف بين الجانبين — على وهته — خلال القرن التاسع عشر ، وبقي قائماً بصورة من الصور إلى عهد « مرجيلوث » في هذا القرن .. وتعلم الفريقان أن يراجعوا أهدافهم ومناهجهم ولكن ظل هناك على حاله تيار عميق من الفكر السائد — ربما غدا الآن كامناً فيما وراء الشعور — يذهب إلى أن الإسلام لابد أن يعاد تشكيله في قوالب غريبة (Westernization) أو عصرية (Modernization) أو إصلاحية (Reformation) وهكذا صال المبشرون ، وجال المستشرقون ، وكتب الفريقان ، أو وأصلوا الكتابة بدرجات متفاوتة من الدهاء وبعد النظر في تناول الموضوع^(١) .

ولقد كانت خطة الدول ، والكنائس تدور حول محور واحد هو ضرب الإسلام ، وتنحيته عن الحياة ، وكان هذا هو العامل الرئيسي الكامن وراء كل التصرفات حيال العالم الإسلامي عامة ، وكل إقليم يراد غزوه والاستيلاء عليه بوجه خاص ، وقد أعلنوا هذه الحقيقة مراراً ، تارة بالقول الفج ، وتارة بالقول الملتوي الخبيث ، ومن ذلك أن « جلادستون »^(٢) وقف بخطب فقال وهو يشير إلى القرآن

(١) راجع الدراسة القيمة التي كتبها أ . ل . طيباوي وترجمها الأستاذ فحى عثمان وهي بعنوان : « المستشرقون الناطقون بالإنجليزية . ومدى اقترابهم من حقيقة الإسلام » وقد نشرها الدكتور محمد البي ملحقاً لكتابه : « الفكر الإسلامي الحديث وصلته بالاستعمار الغربي » ص ٥٧٣ وما بعدها .

(٢) جلادستون زعيم حزب الأحرار البريطاني ، ومن مشاهير الخطباء في القرن التاسع عشر ، وكان من ألد أعداء الخلافة الإسلامية .

الكريم :

« إننا لن نستطيع الاستقرار في الشرق مادام فيه هذا الكتاب » .

أما « وليم جيفورد بالكراف » فيقول في وقاحة : « متى توارى القرآن ومدينة مكة عن بلاد العرب يمكننا أن نرى العربي حيث لا يتدرج في سبيل الحضارة التي لم يعبده عنها إلا محمد وكتابه »^(١) .

أهم الوسائل :

وسنعرض لأهم الوسائل التي اتبعوها لتحقيق هذا الهدف الإجرامي :

١ — التعليم والثقافة الأجنبية :

ليس من غرضنا هنا استقصاء الوسائل ، وإنما حسينا أن نشير إلى أخطر ما استخدم منها تمهيداً للغزو العسكري ، الذي أمكنهم في ظله تخريب الشخصية الإسلامية وصياغتها على طراز فاسد أعوج بعد ذلك .

وفي البدء تنبه كثير منهم إلى سذاجة فكرة التبشير بنصرانيتهم بين المسلمين .

لأن عناصر الإسلام وحقائقه الراقية تسمو إلى غير ماحدود عما

(١) الغارة على العالم الإسلامي ص ٩٣ .

لدى المبشرين من عقائد وأخلاق وعادات ، وتطبع للمسلم بطابع الإحساس بالتفوق والاعتزاز بدينه .

لذلك اتجه التفكير إلى إيجاد « حامض » مذيب لهذه المناعة الإسلامية في نفوس المسلمين ، وقد كان التعليم والثقافة الأوربية هما أخطر المواد التي استخدمت في تحقيق هذا العمل التخريبي الهدام على أوفى الوجوه !

يقول « شاتليه » في تقديمه لأعمال الإرساليات التبشيرية :

« لاشك في أن إرساليات التبشير من بروتستانتية ، وكاثوليكية تعجز عن أن تزعزع العقيدة الإسلامية في نفوس منتحلها ، ولا يتم لها ذلك إلا بيبّ الأفكار التي تتسرب مع اللغات الأوربية ، فنبشر اللغات الإنجليزية والألمانية والهولندية والفرنسية ، يتحرك الإسلام بصحف أوروبا وتمهد السبل لتقدم إسلامي مادي ، وتقضي إرساليات التبشير لبانتها من هدم الفكرة الدينية الإسلامية التي لم تحفظ كيانها وقوتها إلا بعزلتها » (١) .

وقد أدرك المبشرون أنفسهم ذلك حتى قال بعض غلاتهم (زويمر) : « المدارس أحسن مايعول عليه المبشرون في التحكك

(١) الفارة على العالم الإسلامي ص ١٧ - ١٨ . وواضح زيف الجزء الأخير من كلام شاتليه لأن تاريخنا شاهد على عكس ذلك ، فقد اقتحم الإسلام معاقل الحضارات القديمة ، واكتسب أهلها بقوة مبادئه ، ودعوته العالمية ، لا بعزلته .

ولا يزال الإسلام في العصر الحديث يكتسب ملايين الأنصار بقوة الذاتية ، رغم سقوط المسلمين الحضاري !!

بالمسلمين» (١).

وفي مقالة جامعة حلل الشيخ علي يوسف رحمه الله هذا السرطان الخبيث الذي تسلل إلى جسد الأمة الإسلامية في نعومة الأفعي وخطورتها ، ومنها :

« ماطمحت الدول الأوروبية إلى الاستيلاء على بلد أو إقليم من الشرق عموماً ، إلا وسبقت إليها بافتتاح المدارس بمرسليها الدينيين ، ومن تخلق بأخلاقهم ، ليعدوا لها طريق الاستعمار علماً منهم بأن مأمورية هؤلاء المعلمين ليست إلا عبارة عن بث أخلاق وتعاليم — دينية كانت أو فنية — وهم إذا دخلوا قرية وظهروا بهذا المظهر ، لا يلاقون معارضة أو ممانعة لأن حجتهم نشر العلم والتهديب ورفع لواء التمدن ، ومن لا يرضى بذلك فليس له من اسم الإنسانية نصيب ، وتقوم عليه قائمة حرب التعنيف والتنديد بلسان كل خطيب وقلم كل كاتب ، فلا مناص أن تقبل هذه الأقاليم الشرقية الوافدين إليها من المرسلين ، الذين هم نصراء الهداية والمعارف والتمدن في ظاهر العين ؛ وسفراء الاستعمار والاستيلاء في الحقيقة ، وهل يتصور أن قوماً جازوا البحار وتجشموا الأخطار لمحض منفعة من وفدوا إليهم خدمة للإنسانية كما يقولون ؟

كلا .. ولا هي محض التكبس واستجلاب الدرهم والدينار .

إننا نعلم حق العلم أنه مامن مدرسة من هذه المدارس إلا ولها

(١) السابق ص ١٠٨ .

جمعية من الجمعيات الخيرية في مملكتها تنفق عليها النفقات الطائلة ولا يكون ذلك عبثاً ، ونرى بأعيننا من جهة أخرى أن كل دولة غربية ما وضعت يدها على أمة أو قبيلة — تملكاً أو حماية — إلا وجعلت مقدمة ذلك هذه المدارس .

فبان أن المقصد العظيم والباعث القوي هو سياسي وملئ في آن واحد^(١) .

مثالان صارخان :

ونكتفي هنا بذكر مثالين صارخي الدلالة على صدق هذا وهما بلسان الغزاة أنفسهم :

المثال الأول :

من مؤتمر « أدنبرج » التبشيري الذي عقد عام ١٩١٠ م وحضره ١٢٠٠ من المندوبين وتفرع إلى ثمانين لجان ، وخاضت اللجنة الثالثة منها في « الأعمال المدرسية التي يقوم بها المبشرون » واكتفت بهذه الكلمة عن المسلمين فقالت :

« اتفقت آراء سفراء الدول الكبرى في عاصمة السلطنة العثمانية على أن معاهد التعليم الثانوية التي أسسها الأوربيون كان لها تأثير على حل المسألة الشرقية ، يرجح على تأثير العمل المشترك

(١) منتخبات المؤيد ص ٥٠ (السنة الأولى) وقد نقلنا ذلك عن كتاب : الاتجاهات الوطنية

الذي قامت به دول أوروبا كلها»^(١) .

المثال الثاني :

ماصرح به القائد الفرنسي الجنرال « بيير كيللر » عن وسائل التأثير الفرنسي في الشام قبل احتلاله يقول :

« فالتربية الوطنية كانت بكاملها تقريباً في أيدينا ، وفي بداية حرب عام ١٩١٤ م كان أكثر من اثنين وخمسين ألف تلميذ يتلقون دروسهم في مدارسنا ، وكان بين هؤلاء فتيات ينتمون إلى عائلات إسلامية عريقة ، مما جعل الجمعية المركزية السورية التي تألفت في باريس تعلن عام ١٩١٧ م أن جميع ميول السوريين وعواطفهم تتجه نحو فرنسا ، بعد أن تعلموا لغتها ، وخبروها على مرّ الأجيال ، وتأكدوا من إخلاصها وتحردها » !!

ويقول أيضاً : « إن كلية عينطورة في لبنان هي وسط ممتاز للدعاية الفرنسية .

ويقول : « إن مؤسساتنا تعمل دون ملل لتغذية النفوذ الفرنسي مثل : معهد الدراسات العبرية في القدس ، ومعهد الدراسات الإسلامية في القاهرة ، والمدرسة الإكليريكية الدومينيكانية في

(١) القارة على العالم الإسلامي ص ١١٩ ، وراجع فيه الإحصاءات المذهلة عن عدد المبشرين ، ومدارسهم ، وتلاميذهم ، ونفقاتهم الباهظة .. إلخ ص ١٠٦ وما بعدها ، صفحة ٢٠٥ وما بعدها ..

الموصل .. الخ»^(١) .

وما وقع هذه البلاد وقع مثله لغيرها بصورة أو بأخرى ،
وتكالت فيه على المسلمين أم أوروبا وخاصة الدول الطامعة في
الاستيلاء على غيرها ، كانجلترا وهولندا وألمانيا القيصرية .. الخ .

دور أمريكا في حماية التبشير :

ومن أعجب الأمور أن الولايات المتحدة الأمريكية — رغم
عزلتها الشهيرة — كانت على أوثق الصلات بهذا الغزو ، تسهل
طرقه ، وتؤثر في أطرافه بوسائلها المتعددة ، وعلى سبيل المثال بلغ
عدد مندوبي أمريكا ٥٠٥ من المندوبين في مؤتمر أدنبرج التبشيري
سنة ١٩١٠ (وقد سبق ذكره) ، وكان منهم كبار الشخصيات
كالمستر روزفلت رئيس جمهورية أمريكا (السابق على المؤتمر) ولم
يتخلف عن الحضور إلا لعذر طارئ .

وهذا العدد الرهيب يفوق عدد مندوبي أعتى دولة استعمارية في
ذلك الوقت وهي انجلترا التي اشترك عنها ٥٠٢ من المندوبين^(٢) .

ومن المدهش حقاً أن الدولة العثمانية كانت أحياناً تجد من نشاط
المبشرين الأجانب وأعوانهم ، حين رأت الدور التخريبي الهدام الذي
يقومون به سياسياً واجتماعياً وفكرياً ، ولكن :

(١) راجع كتاب الاتجاهات الوطنية في الأدب المعاصر ج ٢ ص ٢٦٤ وما بعدها وهو ينقلها

عن كتاب : بيري : « القضية العربية في نظر الغرب »

(٢) راجع كتاب : الفارة على العالم الإسلامي ص ١٠٩ .

« كانت معاملة الحكومة العثمانية للمبشرين تتحسن بواسطة سفراء الولايات المتحدة » كما يقول المستر « بلس » المبشر البروتستانتي^(١) .

جرائم المبشرين تحت ستار التعليم :

« العلم نور وإصلاح » ، ولكن المبشرين جعلوه وسيلة إفساد وتدمير ، وقصدوا به إلى تخريب الشخصية الإسلامية ، وتفرغها من معاني دينها العظيم ، وإغرائها بفوارغ الأمور !

وسيطل الدور الذي قام به الرهبان والراهبات و « الآباء » — تحت أردية الكهنوت — وصمة في جبينهم حيث رضوا بأن يكونوا أدوات في يد « العلمانية الملحدة » ، وضد أجل مافي الأرض من تعاليم الوحي الإلهي !

ومن أراد التعرف على الدور الحقيقي لهم فليقرأ كلمات المبشر الضال « زويمر » رئيس مؤتمر المبشرين (الذي عقد في القدس عام ١٩٣٥ م) حين بين لزملائه وتلاميذه مهمتهم « الحقيقية » في أوساط المسلمين ، وأكد لهم نجاحهم فيها تماماً ، وعزاهم بذلك عن إفلاسهم في البرنامج « الظاهري » لتنصير المسلمين :

(١) الغارة على العالم الإسلامي ص ٤٢ ، وراجع أيضاً ص ٢٧ منه (فصل تاريخ التبشير) . حيث نسب هذا القول لكتاب « بلس » وعنوانه : ملخص تاريخ التبشير . وراجع أيضاً ص ٢٣٤ وما بعدها حيث يوجد تفصيل واسع عن جمعيات التبشير الأمريكية .

خطبة زويمر :

« .. لقد أديتم الرسالة التي نيّطت بكم أحسن الأداء ، ووفقت لها أسمى التوفيق . وإن كان يخيل إلى أنه مع إتمامكم العمل على أكمل الوجوه لم يفتن بعضكم إلى الغاية الأساسية منه ..

... مهمة التبشير التي نديتكم دول المسيحية للقيام بها في البلاد المحمدية ليست هي إدخال المسلمين في المسيحية ، فإن في هذا هداية لهم وتكريماً، وإنما مهمتكم أن تخرجوا المسلم من الإسلام ليصبح مخلوقاً لاصلة له بالله .

وبالتالي لاصلة تربطه بالأخلاق التي تعتمد عليها الأمم في حياتها ، وبذلك تكونون بعملكم هذا طليعة الفتح الاستعماري في الممالك الإسلامية ، وهذا ماقتم به في خلال الأعوام المائة السالفة خير قيام ..

لقد قبضنا — أيها الإخوان — في هذه الحقبة من الدهر (من ثلث القرن التاسع عشر إلى يومنا هذا) على جميع برامج التعليم في الممالك الإسلامية ، ونشرنا في تلك الربوع مكامن التبشير والكنائس والجمعيات والمدارس المسيحية الكثيرة التي تهيمن عليها الدول الأوربية والأمريكية ..

والفضل إليكم وحدكم أيها الزملاء أنكم أعددتكم بوسائلكم جميع العقول في الممالك الإسلامية إلى قبول السير في الطريق الذي مهدتم له كل التمهيد !

إنكم أعددتُم نشأً في ديار المسلمين لا يعرف الصلة بالله ولا يريد أن يعرفها ، وأخرجتم المسلم من الإسلام ولم تدخلوه في المسيحية ، وبالتالي جاء النشء الإسلامي طبقاً لما أراد له الاستعمار المسيحي لا يهتم بالعظائم ، ويجب الراحة والكسل ، ولا يصرف هم في دنياه إلا في الشهوات .

فإذا تعلمم فللشهوآت ، وإذا جمع المال فللشهوآت ، وإن تبوأ أسمى المراكز فللشهوآت ، ففي سبيل الشهوآت يوجد بكل شيء .
إن مهتمكم تمت على أكمل الوجوه ، وباركتكم المسيحية ، ورضى عنكم الاستعمار ، فاستمروا في أداء رسالتكم .. » .

٢ — محاربة الشريعة الإسلامية :

وفي هذا الجزء المظلم تخرجت أجيال من أبناء المسلمين ، أو بالأحرى من متعلميهم ومثقفهم ، متأثرة بضروب هذا الغزو المنظم ، متطلعة إلى الأفق الغربي تستلهمه الرشد ، وترى فيه النموذج والمثل الأعلى ، وتشرب — في نهم — أنماط حياته سلوكاً وفكراً ، بلا فحص ولا بصيرة ولا رأي سديد !!

وكان أخطر ما ألقى في روع هذه الطلائع النكدة قياس الإسلام بدين أوروبا وكنيستها ، مع فارق مابين الأمرين شكلاً وموضوعاً ، وتاريخاً وظروفاً ، كذلك ربطوا في أذهانهم التخلف المادي بالإسلام ، وهذا عكس الحقيقة ، ونقيض الواقع على طول الخط .

وقد انعكس هذا كله على تصرف هذه الطلائع في نظرتها لدينها العظيم ، وفي درجة استمساكها به ، وفي استعدادها النفسي والفعلي لقبول الفكر الوافد ، واستبداله بالإسلام في كثير من النواحي ولو كان المجال القانوني التشريعي .

وكانت مؤامرات أعداء الإسلام دائبة في تكميل الدائرة ، وضرب النطاق الحاقق حول الشريعة الإسلامية ، ومحاولة انتقاصها وتنقيصها ، وإبعادها عن مجالات الحياة الأساسية أولاً بأول في واقع حياة المسلمين ، بعد أن كسبوا جولتهم داخل عقول الطلائع المستنيرة المرشحة لقيادة أمتها باطراد ، والتي استعانوا بها في هدم حصون أمتهم من داخلها !!

وليس أدل على ذلك من أن دولة الخلافة نفسها كانت نهياً لغزو فكري شامل ، تمثل في المدارس والمعاهد وإرساليات التبشير الأوروبية ، ثم في حملات الدعاية الكاذبة في صحف أوروبا ودوائرها السياسية والأدبية والاجتماعية ، مما شل إرادة دولة الخلافة وأوقعها في النهاية بين برائن مايراد لها من كيدلثيم ، رغم مقاومتها الشديدة من الناحية الإسلامية ، ولكن الغزو الفكري كان قد نجح في تهيئة أنصار له من الداخل قربوا له الجولة من حيث يعلمون أو يجهلون ، وهل كانت الزعامات التي قادت تركيا إلى الإلحاد والفسوق والانحلال ، إلا وليدة هذه الفترة ، وحصاد هذه التربية النكسة ، كما هو معلوم من التاريخ ؟!

يقول الدكتور محمد محمد حسين حول هذا :

« كانت الحضارة الأوربية والثقافية الغربية تغزو الشرق الإسلامي وتغزو تركيا نفسها في أشكال مختلفة ، معاهد علمية وشركات أجنبية ، وبضائع وملابس وفرش وأثاث ، وقد دأب الأمراء والأثرياء والطبقات العليا من المستورزين والحكام على إرسال أبنائهم وبناتهم إلى هذه المدارس التي كانت تعد تلاميذها لأسمى المناصب ، وأقبل عليها أبناء الطبقة المتوسطة تقليداً لهؤلاء الأثرياء في بعض الأحيان، وإعجاباً بنظامها المحكم الدقيق وبراعة تلاميذها في اللغات الأجنبية التي تعد صاحبها لكثير من الأعمال المربحة في أحيان أخرى »^(١) .

وبالنسبة للمجال القانوني التشريعي التقى الأمران : الوهن الداخلي ، والتأمر الخارجي ، على الكيد للشريعة الإسلامية ، وتشويه معالمها فكرياً ، وصرف المسلمين عنها واقعياً .

المحاكم والقوانين الجديدة :

وفي البدء كانت دولة الخلافة توصم بالتخلف المادي والرجعية والجمود ، وكانت الامتيازات الأجنبية قد تغلغلت في أحشائها حتى أصبح للدول الأجنبية سيادة قضائية وتشريعية بالنسبة لرعاياها في داخل دولة الخلافة نفسها ، ثم لما وقعت الحرب الطاحنة بين روسيا وتركيا (١٨٥٣ — ١٨٥٥ م) والتي انتهت بعقد مؤتمر الصلح في باريس (١٨٥٦) تحت إشراف أعتى دولتين تحاربان الإسلام وأهله

(١) الاتجاهات الوطنية في الأدب المعاصر ج ١ ص ٢٥٩ .

وهما : (إنجلترا وفرنسا) استطاعت الدول الكافرة أن تدفع دولة الخلافة إلى منزلق خطير جداً ، يأخذ اسم الإصلاح وشكله بينما ينطوي في داخله على أكبر المفاسد ، وقد أعان على ذلك جنود الغزو الفكري من أبناء الدولة نفسها ورعاياها .

وقد تضمنت القوانين التي أصدرتها الدولة عقب هذا المؤتمر — والتي عرفت باسم « التنظيمات الخيرية » — إنشاء ما يسمى : « بالمحاكم المختلطة » و « المحاكم التجارية » تابعة للدولة نفسها ، وتطبق قوانين أجنبية باسم دولة الخلافة الإسلامية ذات السيطرة الواسعة على المسلمين ، وكان هذا هو حدث الأحداث في بداية انهيار التشريع الإسلامي — من حيث التطبيق والتنفيذ — وحتى مجلة « الأحكام العدلية » التي أصدرتها الدولة عام ١٨٦٩ ميلادية ، وقننت فيها أحكام المعاملات من مذهب الإمام أبي حنيفة لتقابل ما يسمى « بالقانون المدني » في الأنظمة الوضعية — حتى هذه المجلة لم تكن تطبق إلا على رعايا الدولة فقط ، وفي الأحوال التي لا يكون فيها أحد طرفي النزاع أجنبياً ، ثم مع ذلك استمرت عرضة للتخفيف والانتقاص .

نقض العقوبات الإسلامية :

وعلى سبيل المثال كانت هذه « التنظيمات » الجديدة أعنف لطمة صريحة ومباشرة للحدود والجزاءات الإسلامية تنفذ بأيدي المسلمين أنفسهم ، ويبلغ الجهل ببعضهم أن يعدها إصلاحاً وتقدماً

وكسباً ، وهذا هو ذروة ماتستهدفه الحرب الفكرية ، ودليل على براعة مدبريها من أعداء الله ، ثم هو حصاد طبعي لهذا الغرس النكد الذي غُذِيَ في صبر وأناة بكل أفكار الضلال والإلحاد .

يقول الدكتور محمود مصطفى :

« كان قانون العقوبات الفرنسي الذي صدر سنة ١٨١٠ م حدثاً في تاريخ القانون الجنائي ونموذجاً في عهده ، نقلت عنه دول كثيرة في داخل أوروبا وخارجها ، ورغبت تركيا في كسب سياسي بالتقريب بين نظامها والنظم الأوروبية الحديثة فأصدرت قانون : « الجزاء العثماني » ١٨٥٨ م مستمداً أحكامه من القانون الفرنسي ، وبصدور هذا القانون انتهى عصر تطبيق الشريعة الإسلامية في كثير من الأقطار العربية ، حيث طبق عليها بحكم تبعيتها لتركيا وهو ما حصل في سوريا ولبنان والعراق وفلسطين ، وقد ظل قانون « الجزاء العثماني » مطبقاً في هذه الأقطار إلى أن أصدرت قوانينها الخاصة في القرن العشرين^(١) .

مثال تطبيقي لهذا الغزو وآثاره على الشريعة الإسلامية :

ولنأخذ (مصر) على سبيل المثال في فترة ما قبل الاحتلال ، أو بعبارة أدق في فترة تجهيز الفريسة ، وإعدادها ليسهل الاستيلاء عليها ، والإجهاز على بقية مقوماتها وقيمها .

فقد أدرك الغزاة من أول الأمر خطورة دور مصر ، وثقلها في

(١) أصول قانون العقوبات في الدول العربية ص ٩ - ١٠ .

هذه المنطقة ، وقدرتها العارمة على تبديد موجات الغزو المسلح ، كما حدث في معارك التتار والصليبيين من قبل ، ولذلك ركزوا عليها في الجولة الجديدة ، فكانت الحملة الفرنسية (١٧٩٨ م) والحملة الانجليزية (١٨٠٧ م) .

وقد ثبت من هاتين الحملتين أن الشعب المسلم في مصر — رغم تأخره المادي الشديد — لاتزال فيه بقية دينية ، وحمية إسلامية جارفة ، وخاصة إذا هدد في قيمه وأخلاقه التي غرسها فيه الإسلام ، أو أحس بخطر الكفار على دينه وبلاده وإخوانه ، ومن ثم استحال بقاء الحملة الفرنسية ، لأن المسلمين وضعوها في موضعها الصحيح من حيث هي حكم الكفار أعداء الإسلام — رغم ادعاء نابليون — وهذا هو الذى جعل الأزهر يتصدى لقيادة الثورة من الداخل ، وهو عين ماحفز « سليمان الحلبي » طالب انعلم الأزهرى (الشامي وليس المصري) ودفعه لقتل قائد الحملة الثاني « كليبر » باعتباره عدواً للإسلام والمسلمين .

وبنفس المقياس هزم مسلمو رشيد الحملة الانجليزية ، قبل أن يتمكن حاكمهم الجديد من معونتهم (وهو محمد علي) ، أي أنه في أقل من عشر سنين هزم مسلمو مصر أعتى دولتين في عصرهم .

ومن اليقين أن الغزاة قد أعادوا النظر في خططهم ، وعادوا يتقنون التصويب والتسديد إلى مصدر الخطر ومبعث القوة وهو هذا الدين العظيم .

التركيز على مصر :

وقد ثبت تاريخياً أن هذا الهدف كان من أكبر الأسباب الحاملة لفرنسا على تدعيم محمد علي ، والترحيب ببعثات الطلاب المصريين في بلادها ، وبعث العلماء والأطباء والقادة العسكريين إليه ليكونوا في الحقيقة رسل التغيير ، وحَمَلة الحضارة الفرنسية ، وليبذروا في التربة المصرية بذورها وفكرها ، ليؤدي دوره المرسوم في التطور المبغى !

وكان في بداية هذا إدخال بعض القوانين التجارية والحربية إلى مصر نقلاً عن قوانين فرنسا ، وكان بعض المبعوثين إلى فرنسا في هذا العهد الجناح الداخلي لعملية التطوير ، والتأثير الفكري الذي أريد لهذه المنطقة كلها من مدخلها الواسع ، أعني (مصر) !!

وقد ظل النفوذ الفكري الفرنسي يتسلل إلى مصر ويستشري وخاصة في الطبقات العليا من الأمراء وأشباههم ، حتى كان الخديوي إسماعيل الذي ربي في فرنسا ، واستدعي لحكم مصر من هنالك ولما يكمل تعلمه فيها ، وقد عاد هذا الغلام من باريس ، وقد ذابت تماماً كل حرارة للإسلام في صدره ، وصاغته « صالونات » باريس وصداقاته المتعددة لرجائها ونسائها صياغة جديدة ، غريبة تماماً عن الأمة التي ابتليت بحكمه ، فكان مبهوراً بما رأى وسمع . ولم تكن لديه قاعدة أصيلة لماهية أمته ودينه ، وكانت أمنيته التي صرح بها مراراً أن « يجعل مصر قطعة من أوروبا » !!

وكأي مقلد فقد أصالته أخذ من أوروبا الشكل والمظهر دون الجوهر والخبر ، فأسرف إسرافاً فاحشاً في تشييد القصور ، وإقامة

التمثيل ، والحدائق والمتزهات ، والمسارح ودور الغناء بلا ضرورة ولا وعي ، فضلاً عن حديقة الحيوان ، والمتحف الفرعوني ... الخ .
ويعجب دارس التاريخ من هذا الحاكم ، الذي أغرق بلاده في الديون وفوائدها الباهظة ، نتيجة هذه المظاهر ، كيف أنفق الملايين على حفل افتتاح قناة السويس (١٨٦٩ م) حتى اضطر إلى بيع حصّة مصر فيها إلى ألد أعدائها ؟! وكيف أنشأ في مصر — على ما فيها من فقر وجهل — « دار الأوبرا » ، واستقدم لها المغنين والمغنيات ، واستأجر أشهر موسيقي أوروبا ليضعوا لها الألحان ... الخ ؟!!

ومن النظرة الشاملة لهذا كله نستطيع القول أن المادّة التي حكمها هذا الشاب السفیه (١٨٦٣ — ١٨٧٩ م) كانت من أخطر المراحل في تدمير الشخصية الإسلامية ، وإذابتها ، وحل عروتها ، وهدم شريعة الإسلام جملة هدماً غير مسبوق في تاريخها ، بل كان هذا الحاكم أول من تجرأ على هدمها بهذا القدر من الاستبدال والتأصيل والتثبيت لشرائع الكفار !

فقد أنشأ أول مدرسة « للحقوق » على النمط الفرنسي ، فكانت تدعياً علمياً وعملياً لوجهته الاستبدالية ، وقد أصبحت فيما بعد مصدراً أساسياً لتخريج أجيال مبتوتة الصلة بشريعة الإسلام ، لصيقة بشرائع الكفار ، ثم طورت لتصبح « كليات » واسعة النطاق !

مصرع أمة :

وقد تلاقت رغبة إسماعيل المبهور ، برغبة أخرى أذكى وأنكى

وهي رغبة أعداء الإسلام ، الطامعين في محوه ، واستعباد أمته ، ويذكر محمد طلعت حرب — الاقتصادي المصري الشهير — واقعة تاريخية لم نجد من يكذبها وهي : « أن إسماعيل لما أراد أن يتفصل بمصر عن الدولة العثمانية ، وعد ملوك أوروبا إن أيدوه من أجل تحقيق هدفه ، أن يبدل أحكام القرآن فيما يتصل بالحياة السياسية والاجتماعية ، ويفصل السياسة عن الدين ، ويطلق الحرية للنساء بحيث يسرن في أثر المرأة الغربية ، وينقل إلى مصر معالم المدنية الأوروبية »^(١) .

وسواء كان هذا اتفاقاً ، أو استدراجاً ، أو إغراء فلقد كانت النتيجة المروعة هي غرق مصر في الديون ، ثم تدخل الكفار الأجانب في شئوننا بحجة حماية أموالهم ، حتى كان في الوزارة المصرية وزيران : إنجليزي وفرنسي ، ومن هذا الباب النكد دخلت رياح الانقلاب التشريعي ، وانتهت باحتلال البلاد كلها ، ثم فرض شريعة الكفار عليها على مانوجز بيانه فيما يأتي :

(أ) — المحاكم القنصلية :

وقد نشأت على أثر توسع الامتيازات الأجنبية التي صحبت

(١) جاء هذا في كتابه « تربية المرأة والحجاب » الذي نشر عام ١٨٩٩ م رداً على كتاب قاسم أمين : « تحرير المرأة » وكان ذلك في عهد عباس الثاني حفيد إسماعيل مما يجعل لكلام طلعت حرب قيمة أوثق ، على أن كل تصرفات إسماعيل هي ترجمة لهذا الوعد الخسيس ، وقد نقلت هذا النص عن كتاب « قاسم أمين » للدكتور ماهر حسن فهمي ص ١٤٠ (ط : وزارة التعليم المصرية) أو صفحة ٦٥ من (ط : سلسلة أعلام العرب) .

تدفع الأجانب على مصر ، وقد أصبح لهذه المحاكم : « سلطة الحكم فيما يرتكب رعاياها من جرائم على المواطنين ، وكذلك سلطة الفصل في القضايا التي يرفعها رعاياها على الأهالي بل وعلى الحكومة المصرية نفسها » ..

« وكان كل قضاء قنصلي يحكم طبقاً لقانون بلاده ، فكان يوجد بمصر سبع عشرة محكمة قنصلية تمثل سبع عشرة دولة كانت تتمتع بالامتيازات الأجنبية في مصر ، وبهذا تعرضت المعاملات في البلاد لقوانين مختلفة ومتباينة .. بل أكثر من ذلك كان لا يجوز الاستئناف في هذه الأحكام إلا أمام محاكم الاستئناف في البلاد الأجنبية التابع لها القاضي القنصلي .. »^(١) .

(ب) — المحاكم المختلطة :

وقد نشأت في غمرة التدخل الأجنبي وفوضى الامتيازات وفي ظل الخراب الاقتصادي الذي جلبته القروض الربوية ، والإنفاق السفيه على مظاهر حضارية عقيمة النفع للأمة ، وخاصة في مرحلة حياتها وقتئذ !

وكانت نشأة هذه المحاكم واحدة من أبلغ الأدلة على خطورة الغزو الفكري ، وعلى سوء عاقبة تربية القادة على معايير الكفار وثقافتهم وأذواقهم ، وأيضاً على خطورة عزلهم عن قيم الإسلام

(١) تاريخ العرب الحديث والمعاصر ، للدكتور أحمد عزت عبد الكريم وزملائه ص ٩٣ — ٩٤ ، مع بعض التصرف .

ومثله العليا وشرائعه الهادية !

فلقد أراد إسماعيل أن يوحد القضاء فاستبدل الوباء بالداء وحول المحاكم « القنصلية » إلى محاكم تابعة للدولة المصرية ذاتها ، وسميت « بالمختلطة » وكان أغلب قضاتها من الأجانب ، وكانت الشريعة التي يحكمون بها باسم مصر — هذه المرة — هي شرائع فرنسية محضة ، حررت على عجل نقلاً عن القانون الفرنسي ، وعلى نسق مجموعات بل وبواسطة المحامي الفرنسي : (Monori)^(١)

وقد أشرف على هذا التحول الانقلابي الخطير كافر متمصر هو الأرمني « نوبار » ، الذي لاتزال تماثيله قائمة في مدن مصر ، وتسمى باسمه أكبر شوارع فيها ، وهذا غاية الغفلة والجهل ، وتسرب سموم الغزو الفكري إلى نخاع الذين يقودون هذه الأمة المغلوبة على أمرها ، والتي ليست عليها الحقائق وضيعت فيها معايير الاعتزاز حتى بالمقاييس الوطنية ، إذا عز عليهم الاعتزاز بمقاييس الإسلام السامية !

ولنقرأ — تاريخياً — قصة هذه المحاكم :

« عندما فكر إسماعيل في إصلاح فساد المحاكم القنصلية نهجاً منهجاً خاطئاً إذ بدلاً من أن يلغي هذه المحاكم ، ويجعل الجميع سواء أمام القانون ، تحمس لتنفيذ المشروع الذي وضعه وزيره « نوبار » ، وهو يقضي بنقل سلطة المحاكم القنصلية ، المتعددة ، إلى « محاكم مختلطة » أغلب قضاتها من الأوروبيين ، ولم تكن هذه المحاكم سوى

(١) انظر في هذا كتب مداخل القانون مثل كتاب : « نظرية القانون » للدكتور عبد الفتاح

عبد الباقي فقرة ١١٠ .

امتياز جديد ، مهّد لتغلغل نفوذ الأجانب في سلطة « القضاء والتشريع » وفي كيان البلاد المالي والاقتصادي .

وقد جاء نظام المحاكم المختلطة (١٨٧٥ م) قلباً للأوضاع إذ بدلاً من خضوع الأجانب للقضاء القومي ولقوانين الدولة ، أصبح المصريون خاضعين للقضاء المختلط ، وغدوا بذلك غرباء في بلادهم ، وأظهرت هذه المحاكم من التحيز للأجانب في دعاواهم على الحكومة ما جعلها مضرب الأمثال في امتهان العدالة !

ولم يقتصر خطر المحاكم المختلطة على الناحية القضائية بل امتد إلى « السلطة التشريعية » كذلك ، لأن إنشاء هذا النظام أكسب الدول المتمتعة بالامتيازات الأجنبية حقاً جديداً مؤاده : أن التشريع الذي يسري على الأجانب لا يكون نافذاً إلا إذا صدقت عليه الجمعية العمومية لقضاة المحاكم المختلطة ، بذلك شاركت المحاكم المختلطة في سلطة التشريع بالنسبة للأجانب ... »^(١) .

(ج) — المحاكم الأهلية :

وهذه المحاكم هي النسخة العربية من المحاكم المختلطة حذو النعل بالنعل ، إذ لم تكد أقدام الانجليز تدنس مصر بالاحتلال (سبتمبر ١٨٨٢ م) حتى شرعوا في إتمام الخطة الإجرامية لنقل هذه الأمة عن شريعة الإسلام ، ومن ثم أنشأوا بجوار « المحاكم المختلطة » ما أسموه

(١) راجع كتاب تاريخ العرب الحديث « السابق » ، ولم تلغ المحاكم المختلطة في مصر إلا سنة

« بالمحاكم الأهلية » ليتحاكم إليها أهل البلاد أنفسهم ، فيما يشجر بينهم ، وقد صدرت قوانينها ابتداء من نوفمبر ١٨٨٣ م مأخوذة بنصها تقريباً عن القوانين الفرنسية التي وضعت للمحاكم المختلطة .

أي أنه في الشهور الأولى للاحتلال شرع الغزاة الكفار على عجل في العمل الجاد لطرد شريعة الإسلام من مجالات التعامل الحيوي في المجتمع المسلم ، وإحلال القوانين الغربية مكانها !!
وسياتي لهذا مزيد من التفصيل بإذن الله في حديثنا عن مرحلة الاحتلال^(١) .



(١) المحاكم الأهلية من نتائج فترة الاحتلال ، ولكننا ذكرنا عنها هذه النبذة هنا إتماماً لوحدة الموضوع ، وباعتبارها امتداداً مباشراً لما حدث قبل الاحتلال ، وسنعود للحديث عنها في فترة الاحتلال إن شاء الله تعالى .

المرحلة الثانية

الغزو الفكري في فترة الاحتلال

نعني أولاً بفترة (الاحتلال) : تلك الأحقاب النكدية التي كان للكفار الأجانب فيها وجود عسكري ثابت على أرض الأمم المسلمة ، وما يتبعه من وجود جالياتهم ورعاياهم ، وتفردهم بالتفوذ والسلطان !!

فوارق بين الغارتين :

وكانت هذه الجولة الجديدة غارة ساحقة على العالم الإسلامي أخصب وأعنف من موجة الحروب الصليبية ، التي انحسرت نهائياً في أواخر القرن الثالث عشر الميلادي ، وقد جاءت هذه الغزوات القديمة والعالم الإسلامي لما نزل فيه بقية صالحة من قيم الإسلام ومثله العليا ، ثم كانوا هم في موضع الضعف حضارياً فتعلموا منا ونقلوا عنا ، وأيضاً فقد انحصروا في رقعة محدودة من قلب العالم الإسلامي واستهدفوا الأرض وطرّدوا السكان ، وأقاموا مجتمعاً نافراً مغلقاً ، علاقاته بمن حوله علاقة عدا ، لا مكان فيها لغير صوت الحروب والسلاح .

لهذا كله لم يكن للغزو الصليبي الأول تأثير حضاري او فكري ، وإنما كان أشبه شيء بمرض عارض على جسد قوي ، وأقرب الأمور إلى سنن الحياة ، أن يستشر المرض كوامن المناعة فيه ، وأن يستحثه إلى أسباب الوقاية والعلاج ليطرده العلة الوافدة ، وكذلك كان .

أما الغارة الجديدة والتي بدأت عملياً بغارات الأسطول البرتغالي على سواحل العالم الإسلامي ، ثم استيلاء هولاندا على جزر الهند الشرقية في أوائل القرن السابع عشر الميلادي ، والتي بلغت ذروتها في القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين — بعد سقوط الخلافة — إذ استولى الكفار على العالم الإسلامي كله إلا مناطق قليلة لم تنج من الخضوع لنفوذهم ودسائسهم^(١)

فلم تكن أوروبا في هذه المرة مجرد قوة هوجاء منهوسة كأسلافها ، وإنما جاءت ومعها حضارة جديدة براءة ومؤثرة ، وانساحت على امتداد الرقعة الإسلامية كلها تقريباً ، ومهدت طريقها بغزو فكري واجتماعي غلاب ، وأخذت مراكز الحكم والتوجيه ، واستجلبت معها جاليات 'من كل لون ، ومكنت لهم في الأرض فانسابوا في علاقات إنسانية واجتماعية مع شعوب هذه الأمة في التعليم والثقافة ، والصداقة والتجارة ، والفنون والمسارح .. الخ .

وقد وافق ذلك كله جسداً منهكاً ضعفت مناعته فزادته العنة

(١) راجع في وصف وتفصيل هذه الحالة المؤزنة ، رسالة « بين الأمس واليوم » للأستاذ الإمام حسن البنا ، رحمه الله ، وخاصة الفقرة (د — هجوم جديد) .

الوافدة ضعفاً وإنهاكاً !

وهذا هو في جملة الفارق الخطير بين الغارتين ، وقد نبه النبي ﷺ إلى جانبه النفسي المعنوي ، محذراً ومنذراً في حديث هو من أعلام نبوته ﷺ فيقول :

« يوشك الأمم أن تداعى عليكم كما تداعى الأكلة إلى قصعتها ، فقال قائل : أو من قلة نحن يومئذ ؟ قال ﷺ : بل أنتم يومئذ كثير ولكنكم غثاء كغثاء السيل ، ولينزعن الله من صدور عدوكم المهابة منكم ، وليقذفن الله في قلوبكم الوهن ، فقال قائل : وما الوهن ؟ قال ﷺ : حب الدنيا وكراهية الموت » (١) .

انقلاب خطر :

وهذا الوهن الخطير كان من أكبر الأسباب التي مكنت الكفار الغزاة من بلاد الإسلام بعد انحلال الشخصية الإسلامية نوعاً ما ، ثم استطاعوا بعد ذلك تبديل وجهتها ومسارها ، وتنفيذ مخططاتهم الرهيبة في اقتلاع هذا الدين من نفوس أتباعه ، أو تفريغهم من مضمونه الصحيح !

« ذلك أن الغزاة الكفار لم يضيعوا وقتهم عبثاً بعد تمكنهم من

(١) رواه الإمام أحمد عن ثوبان ، وهو عند أبي داود رحمه الله عن ثوبان أيضاً في السنن . كتاب الملاحم — الباب الخامس : تداعى الأمم على الإسلام ، ج ٢ ص ٤٤٦ وانظر فقه أبي داود رحمه الله في تخصيص التداعي « بالإسلام » لأنه محور العداء الحقيقي بيننا وبين الكفار .

مراكز الحكم والتوجيه في بلاد المسلمين ، بل شرعوا على الفور في تنفيذ خططهم التي كانت ترمي إلى أمرين أساسيين :

أحدهما : إنشاء جيل مجانس لهم في ثقافتهم ليسهل عليهم الاتصال به والتفاهم معه .

والثاني : (وهو أخطر الأمرين جميعاً) أن تخلو الأجيال المقبلة من الدين ومن الثقافة الإسلامية ومن الحماية الدينية ^(١) .

وكان لابد لبلوغ هذا الهدف من إحداث انقلاب جذري في حياة المسلمين يصادم المنهاج الإسلامي في جملته الأساسية ، وما كان لهذا الانقلاب أن يتم أو يبلغ مبداه إلا في حراسة الجيوش الكافرة ، وعلى يد أئمة الكفر المباشرة !.

عناصر الانقلاب :

ونستطيع إيجاز العناصر المشتركة وراء هذا الانقلاب في ثلاثة :

أولها : الانحلال الأخلاقي .

وثانيها : الغزو الفكري بشعبه المتعددة .

وثالثها : التربية الجديدة للطبقة البديلة !.

وهذه العناصر قدر مشترك بين ألوان « الاستخراب » الانجليزي والفرنسي والهولندي .. الخ كما هي بلاء مشترك لافرق فيه بين المسلم

(١) راجع الرسالة الصغيرة نشرتها مجلة الأزهر ملحقاً لها بعنوان : « التربية التي يحتاج إليها العالم الإسلامي » للدكتور إبراهيم اللبان .

في أقصى المغرب ، وأخيه في آخر المشرق، وهي أيضاً عوامل متشابكة، متداخلة، ساند بعضها بعضاً حتى وصلت بالمسلمين إلى ما هم عليه الآن من أوضاع غير مسبوقه في تاريخهم ، ولا معقولة في التصور ، فضلاً عن أن تكون واقعاً ثقيلاً يشكل مسيرة حياتهم كلها !!

وستحدث عن كل منها بشيء من الإيجاز :



عناصر الانقلاب في حياة المسلمين

الأول : الانحلال الخلقي

كان المجتمع الإسلامي — رغم كل مايموج به من مخالفات لدينه — يتميز بطابع خاص في أخلاقه وعاداته الأساسية التي غرسها القرآن ، وأسسها الإسلام وجعلها من لب العبادة والتقوى .

وقد جهد الاحتلال الكافر بشتى الطرق ، حتى تمكن من تحطيم مظلة الأعراف الأخلاقية في المجتمعات الإسلامية ، فانطلقت تسري في أوصالها كل موبقات الحضارة الأوروبية ، حتى وصلت في ظل الاحتلال إلى مرحلة الشيوع والاستعلان ، ثم إلى مرتبة الاستقرار والاستحسان ، ثم إلى درجة الشرعية الزائفة ، التي تحميها القوانين الوافدة !

وكان أخطر ما في الأمر أن الاحتلال الكافر يمثل حضارة غالبة ، فيها الصحيح الجيد ، وفيها الرديء الفاسد ، فدخل — أو أدخل — في روع المغلوبين تلازم الأمرين ، وتوهموا أن مظاهر الانحلال والفساد هي من ضرورات التحضر والمدنية في جوانبها الصحيحة ! وللأسف أخذت أمتنا المفاصد ، ولم تستطع أن تأخذ الصحيح ،

بل ماكان أعداؤها ليسمحوا لها بذلك ، فكانت النتيجة هي بحق
ماقاله أحد الكتاب ساخرأ :

« نحن جزء من الحضارة الغربية في الفساد ، والخمور ، والتحلل
الخلقي » !

يقول الدكتور إبراهيم اللبان في تحليل يكاد يكون عاماً :

« وقد ظهر هذا الانحلال في البداية في السلوك الفردي ،
فانحرف الناس عن « نهج الدين » واستهوتهم مظاهر الحياة الغربية ،
فأقبل كثير منهم على الخمور والفجور والقمار ، والربا ونحو ذلك ،
ثم دب ديبب التهاون في الدين فتناول العبادات والعقائد وغيرها من
أنواع الانحلال ، فتكاسل الناس عن أداء العبادات ، وانتشرت في الجو
ضروب من الفلسفة والمذاهب الضالة ، واستمالت الشباب وغير
الشباب ، وصارت العلاقة الجنسية والتزعة الإباحية الشغل الشاغل
« للسينا » وكثير من المجلات والصحف ، ابتغاء وفرة الربح
والدخل ، فانحرف الشباب وفسدت روابط الأسرة ، ثم عمَّ السيل
وطمَّ فانهارت الفضائل الاقتصادية والاجتماعية .. » (١) .

وإذا أخذنا « مصر » على سبيل المثال ، حتى في السنوات الأولى
للاحتلال ، فإننا نجد : « الحياة الأوروبية بخيرها وشرها تغزو مصر
دائبة ، لاتني ولا تفتقر ، فتأسست شركة « التليفونات » الانجليزية
سنة ١٨٨٤ ، وافتتحت السينما الأولى بالقاهرة سنة ١٨٩٦ ..

(١) رسالة « التربية الدينية » السابق ذكرها .

وافتتحت الخمارات في كل مكان حتى تغلغت إلى الريف وإلى أحياء العمال ، وفتحت دور البغاء المرخصة من الحكومة في كل العواصم ، وتجراً الناس على ارتكاب الموبقات والجهربا باسم الحرية الشخصية التي لم يفهموا منها إلا أن يحل الناس أنفسهم من كل قيد ، لايالون ديناً ولا دنيا ولا عرفاً ولا مصلحة ^(١) .

وتحت مختلف دعاوي المدنية ، والترفيه وأمثالها أدخل الكفار جيوشاً أبحث من جيوش الاحتلال العسكري ، وهي أفواج الممثلين والممثلات وأمثالها من البغايا والراقصات ، وشجعوا إنشاء المسارح وفرق الغناء والتمثيل والمراقص والملاهي المتنوعة ، وكانت الأجنبيةات أولاً، ثم الوطنيةات من غير المسلمات ، هن العنصر الأساسي في هذا الغزو ، وقد شجع ذلك المرأة المسلمة نفسها على السفور والتعري والاختلاط الماخن ، ثم تقليد الكافرات في كل شيء بعد ذلك !!

ولم يكن هذا تغييراً في القشرة السطحية للمجتمع الإسلامي وإنما كان زلزالاً رهيباً ومدمراً ، نقض ببيان الأخلاق من قواعده ، وكانت له نتائج بالغة غاية السوء في كل نواحي الحياة الاجتماعية والاقتصادية ، من شيوع الزنى والربا ، والمسكرات والمخدرات ، والتي أدت بدورها إلى تخريب اقتصادي ، تجسم في انتقال الثروة الوطنية تباعاً إلى أيدي الكفار الأجانب من كل لون ، وكان جزء كبير منها ينتقل إليهم عبر المراقص والخمارات وغانيات أوروبا ، أو ساقطاتها ممن وجدن في ظل الاحتلال مناخاً ومرتعاً خصيباً ١ .

(١) راجع كتاب « الاتهامات الوطنية » ج ١ ص ٢٤٤ ، وفي هوامشه إشارات إلى مراجعه مثل تقرير « كرومر » عن سنة ١٩٠٦ ، وكذلك كتابه : Modern Eaypt

الثاني : الغزو الفكري الشامل

كان الغزو في هذا الطور على غاية الضراوة ، وعنف التركيز والتأثير ، وساعده استيلاء الكفار على مقدرات المسلمين ، ومراكز الحكم والتوجيه ، ثم يريق الحضارة المادية ، وإتقان أصحابها لما خططوا له من ضرب الإسلام في نفوس أبنائه، ومبادرتهم إلى تشديد الكرة عليه ..

ولقد امتد هذا الغزو في كل اتجاه ، ودخل على المسلمين في أزياء خادعة وتحت دعاوى المدنية والتقدمية والتجديد .. الخ . وقد تركز في شعب ثلاث ، كانت كلها شراً ووبالاً على المسلمين ، من حيث ظنوها تقدماً ورقياً ، أو زعم لهم أعداؤهم أنها كذلك سواء في الناحية التعليمية ، أو الثقافية ، أو التشريعية ، فكانت أشبه بما وصف به القرآن الكريم دخان جهنم بشعبه الثلاث ، ونوعية تظليله للمكذبين :

﴿ انطلقوا إلى ظِلِّ ذي ثلاثِ شُعَبٍ ، لا ظليل ولا يُغني من الّهَبِ ﴾ الرسائل ٣٠ ، ٣١ .

وسنعرض لشعب هذا الغزو الثلاث على الترتيب السابق :

١ — الشعبة التعليمية :

وجد التعليم في « المدارس الأجنبية » فرصته الذهبية في ظل الاحتلال ، الذي أطلق أيدي غلاة المبشرين والقساوسة وأضرابهم في وضع برامج التعليم لمدارسهم ، حتى كانوا يلقنون فيها أطفال المسلمين مبادئ المسيحية وتعاليمها ، ويحفظونهم صلواتهم ونصوص كتبهم الدينية ، وقد ذكرنا طرفاً من ذلك سابقاً ، ومن أبرز ما يمثل هذا ماكتبه (هـ . دانتني) في كتابه عن مؤتمر المبشرين المنعقد في القدس سنة ١٩٣٥ م يقول في أول الكتاب :

« كان التعليم وسيلة قيمة إلى طبع معرفة تتعلق بالعقيدة المسيحية والعبادة المسيحية في نفوس الطلاب » .

والمؤلف يفرق بين المدارس المسيحية والمدارس التبشيرية ، بأن الأخيرة تحاول نقل الطلاب من مذاهب مختلفة إلى مذهبها هي ، أما المدارس المسيحية فإنها تحاول أن تهيب للطلاب من أي مذهب كان جواً مسيحياً ، وتحمله فيه على ممارسة التقوى المسيحية والسلوك المسيحي .. وخصوصاً مادام طفلاً « وهكذا ينشأ الطالب وتنشأ معه فلسفة مسيحية للحياة » (١) .

ويقول المبشر جون موط : « إن الأثر المفسد في الإسلام يبدأ باكراً جداً ، ومن أجل ذلك يجب حمل الأطفال الصغار إلى المسيح قبل بلوغهم سن الرشد ، وقبل أن تأخذ طبائعهم أشكالها الإسلامية » (٢) .

(١ ، ٢) راجع كتاب « التبشير والاستعمار » ص ٦٧ — ٦٨ (ط : خامسة) وفي هوامشه مراجع أجنبية عديدة .

وأخطر ما في المسألة أن هؤلاء الأطفال هم خاصة المسلمين وخلصتهم من ناحية الأسر والبيوتات التي ينتمون إليها ، ومن ناحية الثقافة التي يحصلون عليها ، ومن ناحية المستقبل الذي ينتظرهم في قيادة أمتهم — تبعاً لذلك — فكرياً ، وسياسياً ، واجتماعياً ، واقتصادياً ، وتعليمياً ، وقانونياً ..!!

أما « المدارس الوطنية » التي تضم عامة أبناء الأمة ممن يقدرّون على التعليم ، فقد سارع الاحتلال بالسيطرة عليها ، عن طريق رجاله وعملائه ، الذين تولوا وضع المناهج الجديدة والسهر على تنفيذها ، وخدمة أغراضها القرية والبعيدة ، مثل القس الانجليزي « دنلوب » الذي رسم سياسة التعليم في مصر ، ونفذها هو وتلاميذه من بعده ، ولا تزال أثار بالغة السوء تطبع بعض جوانب التعليم المصري ومقلديه في الوطن العربي !

حرب على الدين واللغة :

وكان من دأب الاحتلال الدائب أن يبدأ بتطويق التعليم (الديني) وحصاره ، والعمل على سحب جمهوره منه ، إلى وجهة ما يسمى بالتعليم (المدني) .

ثم يكرّر على مناهج الدين والتاريخ الإسلامي بالذات في هذه المدارس فيعرضها عرضاً منفراً مغرضاً ، ويجعلها على هامش المنهج الدراسي ، مما يغرس في نفوس الأطفال والتلاميذ عامة عدم الاهتمام بهما ، ويطبّعهم على الاعتقاد بعدم جدواهما دراسياً ، مما يرسّب في

نفوسهم بالتالي الاستخفاف بالدين من حيث هو سلوك وعبادات ،
وبالتاريخ الإسلامي من حيث هو سجل لأعجاد الأمة الإسلامية
والعربية !

والخطر أنه في نفس الوقت كان يقوم بإحياء النعرات الإقليمية
الجاهلية ، وتسريبها إلى مناهج الدراسة ، وعرضها من زواياها البراقة
التي تغري باعتناقها ، والاعتزاز بها ، والاهتمام بمعرفتها ، كما حدث
بالنسبة لتاريخ الفراعنة في مصر ، والآشوريين والبابليين والفينيقيين في
غيرها .. الخ .

وأخطر من هذا أن الاحتلال كان يقوم بنصب مثل عليا جديدة
أمام أجيال المتعلمين ، فيعرض لهم تاريخ أوروبا وحياة أبطالها
وعلمائها ، ومذاهبها الفلسفية والاجتماعية ونظرياتها العلمية ..

كل ذلك يعرض بطريقة لامعة جذابة ليتم استقطاب المسلمين
عن دينهم بأحد الطريقتين :

طريق الاعتزاز بما قبل الإسلام ، وفي هذا فرقتهم وتباعدهم !

أو طريق الفناء في الحضارة الغازية ، وفي هذا محوهم وردتهم !

وكلاهما شر محض ، واستبدال للوجهة الإسلامية ، في صمت
قاتل أو في جلبة براقة ، بأسلحة خفية لاتفيق فيها الضحية إلا بعد
فوات الأوان !.

ولقد كان من أبشع وسائل الاحتلال في هذا هو تغيير لغة
الدراسة ، وفرض لغات المحتلين الغزاة مكان اللغات المحلية في التعليم ،

وفي الحصول على الشهادات التي جعلها مفتاح الوظائف ، وبذلك
ضمنوا لأنفسهم ألا يمر متعلم إلا من خلال فكرهم ولغتهم ،
ونظرتهم للحياة ، بل حاولوا في ضراوة أن يجعلوا لغتهم هي لغة
التخاطب في الشعوب التي ابتليت بهم !!

وقد فعلوا ذلك في الهند ، وجنوب شرق آسيا ، والمغرب
العربي ، ومصر وغيرها على تفاوت في درجات نجاح الاحتلال في
ذلك !.

ويذكر مؤرخ معاصر — على سبيل المثال — : « أن الانجليز
حين أعادوا في مصر تجربتهم التي نجحت في الهند ، وهي نشر اللغة
الانجليزية حتى تكون لغة تخاطب ، ففرضوا التدريس بها ، لم يقف في
وجههم إلا الإسلام الذي يقدر اللغة العربية ، في حين أن الطريق
كان ممهداً في الهند ، التي لم تكن لها لغة مقدسة » (١) .

ولم تنج مصر — مع ذلك — من المحاولة إلا جزئياً ، ولعوامل
خاصة كثيرة أهمها وجود الأزهر ، ولكن بلداً كالجيزة مثلاً ،
فرضت عليها الفرنسية في كل مجال ، حتى كان كبار كتابها وأدبائها
يعجزون عن التعبير — بله التأليف — باللغة العربية ، ولم يكن أمام
المتعلم فيها إلا إتقان لغة العدو الغازي ، ولولا الجهود الخارقة — التي
تفوق التصور — لجمعية علماء الجزائر ، ودعاة الإسلام لما بقي

(١) تقرير أحمد شفيق باشا المؤرخ المصري — عن حالة التعليم في مصر عام ١٨٨٣ في
كتابه « مذكراتي في نصف قرن » ج ٢ ص ٨٨ وما بعدها (يراجع بالتفصيل كتاب
الاتجاهات الوطنية ج ١ ص ٩١) .

للغة العربية ، أو الإسلام نفسه هناك عين ولا أثر ، وخاصة في
أوساط المثقفين ، والمفكر الجزائري المسلم « مالك بن نبي »^(١) رحمه
الله أوضح مثال لذلك ، إذ لم يستطع إجادة العربية إلا في أخريات
حياته ، وكتبه الإسلامية — على عمقها ودقتها — مكتوبة كلها باللغة
الفرنسية !

أما المدارس الأهلية ، وخاصة المدارس العليا والكليات ونحوها
فلها حديث يطول ، وقد قام الاحتلال بتوجيهها بطريق مباشر أو غير
مباشر ، حتى أخرجت أخبث الثمار لأمتها . ومنها — على سبيل
المثال — بعض المدارس أو الكليات التي أسسها السير أحمد خان في
الهند ، وكلية الآداب في مصر التي قام المستشرقون بدور رئيسي في
تربية أجيالها الأولى ، وكان منهم طه حسين وأضرابه ممن قادوا الحركة
الفكرية في مصر وغيرها بعد ذلك ، وجنحوا بآمتهم إلى ماأشربته
قلوبهم وعقولهم من فكر وافد ، وفلسفات فاسدة ، ومناهج زائفة ،
إلا من عصمهم الله وهداهم ، ونجاهم من غوائل هذه التربية الخبيثة !

دور الابتعاث في التدمير :

وفي مجال التعليم أيضاً كانت البعثات تتقاطر على الدول الأوروبية
من أبناء المسلمين استكمالاً لتعليمهم العالي وما ماثله ، وكانت هذه
هي نهاية المطاف في الإجهاز على بقايا الإسلام ، وطباع الشريعة

(١) هو المفكر الإسلامي المعاصر ، وكان يتميز بعمق الفكر والنظر ، وشدة الاعتزاز
بالشمول الإسلامي للحياة ، توفي عام ١٣٩٣ هـ (١٩٧٣) رحمه الله .

وعاداته في نفوسهم ، حيث لا يرجعون إلا وقد تأثروا بوجهة الغرب وفلسفته ، أو أخذوا « طريقة العيش الأوروبي » على حد تعبير المؤرخ « توينبي » ، وبذلك أصبحوا رصيذاً في حساب أعداء الإسلام بالسلوك والتربية والعادات الجديدة ، وهؤلاء وأمثالهم هم الذين كتب على أمتنا أن يقودوا حركتها في شتى مجالات الحياة ، حتى أحلوا دار البوار ، وبدلوا وجهتها في الحياة ، وكانوا هم الجنود المجندة في يد أعداء الإسلام لإحداث هذا الانقلاب الجذري في حياة المسلمين من حيث علموا أو جهلوا ، ومن حيث أرادوا أو انساقوا مع التيار بلا فهم ولا وعي !

ولعل من أسوأ الأمثلة لهذا النمط أن « قاسم أمين » بعد أن درس في مدرسة الحقوق المصرية ، ذات المناهج الفرنسية ، وتخرج منها في سنة ١٨٨١ م ذهب إلى فرنسا ليستكمل تعليمه العالي ، متزوداً من شريعة أعداء أمته ودينه ، ولما شاهد الفنون الفرنسية ومتحف « اللوفر » كتب يقول :

« لعل أكبر الأسباب في انحطاط الأمة المصرية تأخرها في الفنون الجميلة : التمثيل والتصوير والموسيقى .. هذه الفنون ترمي جميعاً على اختلاف موضوعها إلى غاية واحدة هي تربية النفس على حب الكمال والجمال ، فإنها لها هو نقص في تهذيب الحواس والشعور » (١) .

(١) كتاب « كلمات » لقاسم أمين ص ٢٤ (وقد جاء هنا في كتاب : قاسم أمين للدكتور ماهر فهمي ص ٣٤) ، ط : وزارة التربية والتعليم المصرية ١٩٦٤ .

ولم يكن هذا بداهة هو سبب تدهور الأمة المصرية، ولا كان هذا
ماحتاجه ولا في المرتبة الأخيرة، خاصة بعد غرقها في الديون الربوية
بسبب عبث حاكمها إسماعيل، وموسيقاه، «ودار أوبراه» .. الخ !!
ثم هي كانت مشرفة على خراب اقتصادي كامل ويوشك
أعداؤها على احتلالها، وكان التشريع الفرنسي قد تغلغل في
أحشائها، ولكن «قاسم أمين» كان نموذجاً لما يمكن للغزو الفكري
وللتعليم الأجنبي أن يفعلاه في النفوس، من خلع ولائها لأصلها،
وفصل مشاعرهما عن ظروف أمتها، ودفعها إلى مظاهر فارغة تقتل
أصحابها في الرخاء، فكيف بها في أزمان البلاء والعناء !!

وهذا أيضاً واحد ممن كتب على أمتنا أن يتصلوا لتغيير حياتها
الاجتماعية، وأن يتولى أخطر قضايا المجتمع الإسلامي وهي «قضية
المرأة»، فقادها هو وشيعته — ومن ورائهم تخطيط الاحتلال — إلى
أشنع مصر، وحرروها فعلاً من كل كريم وشريف من القيم
والمعايير.

شاهد على قومه :

ونذكر هنا تحليلاً بالغ الخطورة، ويطابق تماماً الواقع الأليم الذي
حدثه التعليم الأوروبي في نفوس أبناء المسلمين، وهو صورة تتكرر
في كل إقليم، وعلى يد كل كافر محتل مهما اختلفت قوميته
وجنسيته !.

كتب (ك . ك . برج) الأستاذ بجامعة « ليدن » يقول :

« اضطر الأندونوس من جانبهم إلى انتجاع الجامعات الهولندية لاستكمال دراستهم ، وعلى ذلك سكنت في عقل الشباب الأندونيسي. الممتاز وقلبه — في أحسن فترات حياته استعداداً — أفكار وآراء مستمدة من الخصائص الهولندية ، والثقافة الهولندية ، مختلفة أتم الاختلاف عن الأفكار التي كانت التقاليد تدعو إلى اعتناقها واحترامها في أندونيسيا ، وفي الجملة ففي حين أن المعلمين الهولنديين كانوا غير قادرين — بسبب انتابهم لشعب نبذ وحدته الروحية منذ قرون — على أن يحلوا محل الثقافة القديمة ونظام التعليم القديم ، ثقافة جديدة ونظماً في التعليم جديداً لهما ما لسابقيهما من القوة الذاتية ، والتماسك والملاءمة لحال البلاد ، نجد أولئك المعلمين من جهة أخرى ينسفون بقوة ثقافتهم الغربية من نفوس الناس اعتقادهم بالعادات القديمة واحترامهم لها ، ومعنى هذا أنهم يوهنون أساس المجتمع القديم ، وأساس الإسلام أيضاً .

إن التعليم الأوروبي يعمل على قلب وجهة نظر الناس قلباً لا يقف عند حد ، وقوة الضربة التي تعانيها الثقافة الأهلية كل يوم إنما يحس بها تمام الإحساس الأندونوس الذين هم أكبر سناً ، أما الجيل الجديد فقد شب بين أحضان النظام الجديد ، ولم يظهره المعلم الأوروبي على شيء من الثقافة الأهلية ، حتى إن هذا الجيل لا يحس بما بين الثقافتين من فرق إحساساً قوياً .

إن تغير نزعة الشباب الأندونوسي المستنير إزاء ثقافته القديمة بتأثير التعليم الأوروبي وتأثير البيئة الهولندية يشبه ما حدث عند الشباب المصري من نصف قرن أو ثلاثة أرباع قرن ، ومسلوك

الشباب الأندونوسي إزاء التعليم الغربي يسر على مثل ماسار في مصر ، يظهر الشباب عداؤه للعقلية الغربية ولكنه لا يستطيع في الوقت نفسه الاستغناء عن الثقافة الغربية ، وهو ينزع نزعة قومية شديدة ولكنه رغم ذلك منقطع من وجوه كثيرة — بسبب ثقافته الغربية — عن جمهور الأمة التي ولد فيها ،^(١) .

ويقول : « للكثير من صغار الشباب المثقفين مسلك إزاء الإسلام ، يختلف عن مسلك الجيل السابق أتم الاختلاف ، فقد أصبحوا بتأثير التعليم العلماني ، لا يعبأون بالدين في الجملة » ،^(٢) .

٢ — الشعبة الثقافية :

نعني بها ما يتعلق بفكر العدو وفلسفة حياته وأنماط سلوكه ، وعاداته وتقاليده الخاصة التي تغاير في جوهرها الكلي أنماط الحياة الإسلامية ، ثم هي ضرب يجاور التعليم المدرسي ، ويزيد عليه امتداداً مع مجالات الحياة المتعددة .

وفي هذا المجال العريض انطلق أئمة الكفر يغزون المسلمين غزواً مركزاً ، يستهدف هدفاً محدداً مرسوماً هو : ردة المسلمين عن دينهم ، إن لم يكن « بالتصير » المباشر ، « فبالتغريب » الكامل ، الذي يعني فناء مطلقاً في حضارة أوروبا « خيرها وشرها ، حلوها ومرها ، ما يحب منها وما يكره ، وما يحمد منها وما يعاب »^(٣) .

(١) كتاب : « وجهة الإسلام » ص ١٩٠ (ترجمة أبي ريدة) .

(٢) المرجع السابق ص ١٩٢ .

(٣) هذه كلمات د . طه حسين في كتابه « مستقبل الثقافة في مصر » وهي تمثل مأساة أجيال كاملة أعطت أوروبا ولأعها نتيجة هذا الغزو الفكري العنيف !!

سر تحالف الأضداد :

وفي سبيل تحقيق هذا الهدف تعاونت الأطراف المتناقضة جميعاً من سياسيين واقتصاديين ، ومبشرين ومستشرقين ، وممثلين وراقصين .. الخ .

بل في سبيل هذا الهدف كانت تتلاقى دول الاستعمار المتنافسة على المغام والأسلاب ، المتصارعة في كل الميادين ، إلا ميدان الكيد للإسلام ، بل في سبيله كانت تتناسى العداوات التقليدية الرهيبة بين المذاهب المسيحية وكنائسها المختلفة ، لأنهم كانوا يرون أنفسهم بإزاء عدو مشترك هو الإسلام المتمثل في مصدره الأصيلين : الكتاب والسنة ، وفي تاريخه المجيد ، وسيرة نبيه ﷺ ، والسلف الصالح من بعده .

ولقد كان أئمة الكفر على غاية الدهاء ، حيث حددوا هدفهم من أول الطريق ، وسددوا الرماية إلى قلبه بلا تسويق ، في الوقت الذي كان كثير من قادة هذه الأمة لا يفقهون هذه الحقيقة كوعي عدوهم لها ، أو يجهلونها البتة !!

بدائل عن الإسلام :

لم يكن أئمة الكفر يخشون النزعات الوطنية ، ولا النعرات القومية ، بل كانوا في أكثر الأحيان هم الذين اصطنعوها ، وأغروا المسلمين بها ، وزينوها لهم ، وعلموهم إياها ، لتكون مزاحماً للرابطة

الإسلامية ، وبدلاً يمكن احتواؤه والتعامل معه وخديعة أصحابه ،
بعد أن استعصى عليهم دائماً احتواء الإسلام بمبادئه الفذة ، ودعوته
الفارعة للجهاد والاستشهاد في سبيل الله عز وجل !

ومن أحببت أساليب هذا الغزو الثقافي المبكرة ، الإلحاح على
استبدال كلمة « الأجانب » « بالكفار » ، حتى يخف ويتميع في
النفوس ضرورة جهادهم وحربهم ، أو على الأقل لاتصبح عقيدة
مقدسة تؤجج الضمائر وتلهب المشاعر !!

وقد استدرجوا قادة الأمم المسلمة إلى هذا المتزلزل الخطير ،
فكانت النتيجة المروعة ضعف هذه الأمم وتشتتها في ظل الوطنية
والقومية والإقليمية ، مما أطال فترة الاحتلال ، ومدّ له في جبال
الأمان ، على عكس ما رأيناه في الفترات السابقة ، كمقاومة الحملة
الفرنسية في مصر ، وما فعله عبد القادر الجزائري وعمر المختار — في
الشمال الأفريقي — وغيرهما من دعاة الجهاد على النمط الإسلامي !

ومن ثم لم يستطع الزعماء الوطنيون ، المفرغون من المضمون
الإسلامي ، أن يستثيروا عزائم أممهم ، ولا أن يستنهضوها لعمل
حاسم ، ولذلك كانوا يلجأون للإسلام في الأزمات الحازية ، حتى
إذا حرك الأمم وأجج العزائم ، ودفع حملته المغارم ، كان جزاؤه الخيانة
والطرد ، والإبعاد عن نشاط الحياة بعد تمكن أدعياء الزعامة^(١)

(١) وفي هذا المجال نذكر دور الأزهر في الثورة المصرية (١٩١٩ م) ، ودور علماء
الإسلام ودعائه في الجزائر والمغرب وتونس والهند ، حتى طاغية الترك مصطفى كمال
أحرز انتصاراته الأولى باستشارة الإسلام في نفوس الأتراك ، ومع هذا لم يجد الإسلام أمة =

الكفار لا يخافون إلا الإسلام :

لذلك كان مايشغل بال أئمة الكفر ، هو قدرة الإسلام العارمة على الإلهاب والتأجيج . وفي ذلك يقول الأستاذ « ماسينيون » :

« .. الحركات التي تواجهنا في الغالب كالبرق الخاطف .. والحركات الفكرية في الإسلام تستعد في خفاء وصمت ، وتندلع فجأة دون أن يسبقها نذير .. وبعبارة اصطلاحية أكثر دقة نستطيع تحليل مايقع هكذا :

أول الأدوار هو دور « النداء الباطن » الذي يهيب بالضمير الاجتماعي ويوقظه ، وإن ظل في حالة « قعود » أو « تقية » أو « كتمان » ، وإذا نضج هذا النداء تبعه الدور الثاني مباشرة وهو دور « الدعوة » للتفكير العام ، الذي يجاهد جنوده ليستردوا بالسيف ماتعطل من حقوق الشريعة .

هذا هو المفهوم الذي يصدق على كل الحركات ، والذي يسمى عند مختلف الجماعات ، وفي مختلف الأوقات : « بالظهور » ، أو « بالدفع » ، أو « الخروج » ، أو « الشراء » (شراء الإنسان نفسه ابتغاء مرضاة الله) .

يجب أن نجعل هذه الحقائق نصب أعيننا إذا أردنا أن ندرك أي أساس واه ، تقوم عليه المنشآت الأوروبية في بلاد الإسلام، فبعد أعوام

= نعمله للناس بعد استقلالها ، بل كان ظلم ذوي القربى أشد وأؤكد عليه من كيد أعدائه الكاشحين !.

من السكينة ربما تندلع بغثة نار الدعوة إلى الجهاد أبعد ماتكون توقعا لها^(١).

تربية الزعامات على غير الإسلام :

وهذا تحليل صادق يؤكد فهم أعدائنا لطبيعة الإسلام ، ويوضح وضعهم لهذا الأمر في بؤرة الاعتبار ، عند تصميم خطط الغزو الفكري ، ورسم طرق التعامل مع المسلمين على المدى البعيد ، وهذا مايزيده المستشرق الانجليزي « جب » توضيحاً إذ يقول :

« هناك ظاهرة كثيراً ما يهملها الباحثون في حركات المجتمع الإسلامي ، مهما كان نوعها ، وهي أنها تنضج بسرعة مذهشة ، حتى إن وجودها — كما أشار الأستاذ « ماسينيون » — يندر أن يخطر على بال أحد قبل أن يندلع لهيبها ويروّع العالم ، والمسألة الكبرى هي مسألة الزعامة ، فحينما يجد الإسلام « صلاح الدين » الجديد ، رجلاً يجمع بين الحنكة السياسية العظيمة ، وبين شعور برسالته الدينية يبلغ أعماق نفسه ، فإن ذلك ينحل من تلقاء نفسه »^(٢).

لا جرم بعد هذا الفهم الدقيق لطبيعة الإسلام ، أن تحكم الخطط لضربه وتصفيته ، وخاصة في نفوس الزعامات التي تقود حركة أمته حتى لا ينبعث منها أمثال « صلاح الدين » ، وبالتالي تموت حركة بعث الإسلام وإحياء أمته ، أو يطويها الطوفان الغازي !!

(١) كتاب : وجهة الإسلام ص ٥٤ — ٥٥ .

(٢) المرجع السابق ص ٢٣٨ — ٢٣٩ .

من أساليب الغزو الرهيب :

وقد تعددت أساليب هذا الغزو الثقافي وتنوعت . ومنها على سبيل الإيجاز والتمثيل :

(أ) سيل الكتب والمطبوعات المتنوعة التي تمجد أوروبا ، وتصف حضارتها وتطورها ، وكيف وصلت إلى هذا كله عبر الصراع مع الكنيسة ورجال الدين ، وعزلهم عن الحياة ، والدعوة (تصريحاً ، أو تلميحاً) إلى سحب هذا المعنى على كل دين ، باعتباره طوراً متخلفاً من أطوار الحياة ، أدى دوره في القرون الوسيطة ، ولا يصلح لمجارية العصر الحاضر بتقدمه العلمي إلى آخر مايزعمون !

وكان من أخطر الأدوات العصرية التي اعتمدوا عليها : « الصحافة » باعتبارها أكثر شيوعاً ، وأبعد تأثيراً ، سواء كانت محلية ، أو مستوردة مجلوبة من وراء البحار والحدود ، تحمل للمسلمين قيماً جديدة ، وتحفل بضروب من الأفكار المخربة ، وأحاديث الجنس الفاضحة ، والصور العارية ، والقصص البذيئة ، والمقالات والبحوث التي تتناول كثيراً من المقدسات الدينية بالنقد والتجريح في غير ماحرج !

ولقد يكون هذا شيئاً عادياً بالنسبة لمجتمعاتنا بعد أن قطعت شوطاً طويلاً في الانحلال والتفرنج ، ثم قد يكون هذا كله أيسر وأسهل بالنسبة للمجتمع الأوروبي ، الذي قطع شوطاً أبعد في التمرد على كنيسته ، وما تمثله من قيم ومثل ، وسقط في لجة الانحلال

الجنسي .. الخ !

ولكن ماكان ينشر على مجتمعاتنا في ذلك الوقت — حين كانت تنسم بالحفاظ على بقايا دينها — كان له وقع الزلازل والبراكين في تصديق عقدة التماسك الديني ، وفي تشجيع الانحراف والفساد تحت مظلة الاحتلال ، وفي حماية قوانينه المستجلبة من بيئته الفاسدة !

وكان من أكثر الأشياء تليساً على الأمة ، وتغريراً بها ، أن الصحف الوطنية نفسها التي كانت تحارب الاحتلال ، ونصاوله في ميدان السياسة ، ترضى — في نفس الوقت — بدور التابع الضائع في ميدان الفكر والثقافة ، بل وربما تصدى بعضها لحرب الإسلام كحرب العدو وأشد ، فضلاً عما كانت تقوم به من تشجيع النعرات القومية ، والإقليمية ، وتسريب ألوان الحياة الغربية إلى جمهورها ، لأن القائمين عليها في أغلب الأحيان كانوا تلاميذ أوفياء للحضارة الأوروبية « بخيرها وشرها !.. » ، بل ربما كان كثير منهم في داخلهم عباداً خاشعين في محاريبها الخسيسة !

ليس من شك في أن الصحافة وأمثالها أسلحة عظيمة في نهضات الأمم وتطورها في العصر الحاضر ، ولكنها في ظل الاحتلال ، وعلى يد تلاميذه ، تحولت إلى أسلحة فاسدة ، مرتدة إلى صدور أمتها اجتماعياً وفكرياً ودينياً !

ولندع الحديث لراصد أوروبي خبير ، يشهد على قومه ، لتتضح لنا أبعاد المعركة ، وأنها عداوة شاملة للإسلام !! يقول « جب » المستشرق الانجليزي ، حين يستعرض أنجح الوسائل لتغريب المسلمين

تغريباً حقيقياً ، يهضمون فيه الحضارة الغربية ، حتى تصبح فيهم شيئاً ذاتياً لا مجرد تقليد للغرب ، يقول :

« وللوصول إلى هذا التطور الأبعد ... الذي تصبح الأشكال الخارجية بدونه مجرد مظاهر سطحية ، يجب ألا ينحصر الأمر في الاعتماد على التعليم في المدارس ، بل يجب أن يكون الاهتمام الأكبر منصرفاً إلى خلق رأي عام ، والسبيل إلى ذلك هو الاعتماد على الصحافة » ثم يستطرد مقررأ :

« إن الصحافة هي أقوى الأدوات الأوروبية وأعظمها نفوذاً في العالم الإسلامي » .

كذلك يدي « جب » ملاحظة عن النتائج الزهية لهذا الغزو فيقول :

« إن النشاط التعليمي والثقافي — عن طريق المدارس العصرية والصحافة — قد ترك في المسلمين — من غير وعي منهم — أثراً جعلهم يبدون في مظهرهم العام لادنيين إلى حد بعيد .. وذلك خاصة هو اللب المثمر في كل مازكت محاولات الغرب لحمل العالم الإسلامي على حضارته من آثار .

إن الإسلام كعقيدة لم يفقد إلا قليلاً من قوته وسلطانه ، ولكن الإسلام كقوة مهيمنة على الحياة الاجتماعية قد فقد مكانته ، فهناك مؤثرات أخرى تعمل إلى جانبه وهي — في كثير من الأحيان — تتعارض مع تفاليده وتعاليمه تعارضاً صريحاً ، ولكنها تشق طريقها بالرغم من ذلك إلى المجتمع الإسلامي في قوة وعزم . وبذلك فقد

الإسلام سيطرته على حياة المسلمين الاجتماعية ، وأخذت دائرة نفوذه تضيق شيئاً فشيئاً حتى انحصرت في طقوس محدودة ^(١) .

(ب) الشبهات الدينية والطعن في الإسلام :

وهذه الشبهات والمطاعن نوعان :

النوع الأول : شبهات ومطاعن ساذجة ، ومعظمها كان يصدر عن المبشرين المتعصبين ، ولغرض ديني محض ، متصورين أنهم بذلك يدخلون المسلمين في دينهم ، ولم يكن لهذا النوع أثر يذكر ، بل ربما أتى بعكس ماأريد منه ، لأنه يهيج العاطفة الإسلامية ، لذلك غيروا خطتهم ، واعتمدوا على مدخل آخر بغيرون به « المفاهيم » بواسطة الاحتكاك اليومي في التعليم ، والطب وملاجيء الأيتام ونحو ذلك ^(٢)

وفي مقال كتبه « ألمردوغلاس » بعنوان « كيف نضم إلينا أطفال المسلمين في الجزائر ؟ » يعلق على هذه الوسائل فيقول :

« إن هذه السبل لاتجعل الأطفال نصارى ، ولكنها لاتبقيهم مسلمين كأبائهم ، ومثل هذه الجهود يبذلها المبشرون في شمال إفريقيا ومصر » ^(٣) .

(١) هذه نقول من ترجمة الدكتور محمد حسين لبعض فقرات كتاب : « وجهة الإسلام » .

تراجع في كتاب الاتجاهات الوطنية في الأدب المعاصر ج ٢ ص ٢٠٣ - ٢٠٥ .

(٢) راجع في ذلك تفصيلاً « الفارة على العالم الإسلامي » ص ٥١ وما بعدها .

(٣) راجع كتاب : التبشير والاستعمار ص ١٩٤ .

النوع الثاني : الدراسات الاستشرافية !

وهي دراسات في كثير من نواحيها تتميز بالصبر والجلد ، ومحاولة الاستيعاب والتحليل ، ولكنها في نفس الوقت تحتوي على أخطاء جسيمة ، عمداً أو جهلاً ، ثم هي في غالبيتها لم يقصد بها خدمة العلم والفكر ، ولا إشباع رغبة خاصة أو عامة في البحث والاطلاع ، وإنما كانت في جملتها خدمة مباشرة للدول الاستعمارية ، أو الكنائس الأوروبية ، بغرض تطويق الإسلام وضربه على وعي وبصر به ، واقتلاع جوهره الحي النابض الذي يشكل أكبر الأخطار بالنسبة لهم .

ومن ثم حفلت هذه الدراسات بضروب التشكيك ، والنقد الجائر ، وانطلقت منها الشبهات المدروسة واحدة تلو الأخرى ، طعناً في كل نواحي الإسلام بدءاً بالقرآن العظيم ذاته ، وانتهاء بسنة النبي ﷺ ورواياته ، وما بين ذلك من اتهام للنبي ﷺ وأصحابه ، وطمس لكل معالم المجد والخير في التاريخ الإسلامي المشرق ، حتى لنستطيع القول إنه لم تسلم ناحية واحدة من نواحي الإسلام : عقيدة ، ومنهجاً ، ونظماً ، وتطبيقاً ، وتاريخاً ، وأمة ، بل أرسلت سهام حاقدة ، من هذه الدراسات المنظمة ، التي تصطنع منهجاً في البحث يجذب القارئ المسلم ، الذي لم ينل قسطاً وافياً من التعليم الصحيح عن دينه وتاريخه الإسلامي ، ولذلك سهل تعبته بهذه الدراسات الخبيثة ، وتناولت في تشكيل فكر المثقفين المسلمين حتى فيما يتعلق بفهم الإسلام نفسه .

ومتى كان ذلك !؟

في وقت كانت فيه هذه الأجيال مهزومة سياسياً ونفسياً ، وموصومة بالتخلف مادياً وحضارياً ، ومفرغة من أصلاتها روحياً وعلمياً ، ومحرومة من أي تربية دينية صحيحة ، أو تعليم إسلامي سليم ، بل كانت — كما قلنا — مشحونة بأفكار وأنماط الحضارة المادية الغالبة ، وهي في جملتها ذات طابع إلحادي مناقض للإسلام !

وتحت ستار هذه الدراسات الاستشراقية الخبيثة ، وما ادعته من منهجية علمية كاذبة ، أمكن إصابة مقاتل هذه الأمم المسلمة! خاصة حين اصطنعوا لهم تلاميذ من بينها ، أرضعوهم طرائقهم وأفكارهم ، ودفعوا بهم إلى قلب أمتهم ليكونوا أقدر على غزو حصونها من داخلها ، والإتيان عليها من قواعدها !

ولقد يفسر لنا هذا تشجيع الاحتلال لإقامة كليات الآداب وأشباهها ابتداءً ، وفي بلد كمصر — على سبيل المثال — دفع إلى كلية الآداب في عهدها الأول بمستشرقيه ، وصنائعه ، والمفتونين بفكرة ووجهة نظر الغرب ، ليناقشوا أخطر قضايا الإسلام تحت ستار العلم ، وحرية الفكر ، وجدة المناهج !

ومن المؤكد — علمياً وتاريخياً — أن ماطلع به الدكتور طه حسين على أمتة من طعن في القرآن والسنة ، ومن تكذيب لقصة إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام ، ومن أقوال في الشعر الجاهلي ، ونحوه .. كل ذلك قد استقاه مباشرة من أساتذته في «الجامعة الأهلية» المصرية ، كالدكتور «جويدي» الإيطالي ، وكذلك من غلاة

المستشرقين المتعصبين ضد الإسلام كالأستاذ « ماسنيون » اليهودي
الفرنسي ، السربوني ، وهو أستاذه ، وكذلك « مرجليوث »
الانجليزي^(١) .



(١) راجع في هذا كتاب « نقض كتاب الشعر الجاهلي » للشيخ محمد الخضر حسين رحمه
الله !.

وكذلك مقالتي هاتين للأستاذين فتحي وضوء . و محمد صبيح ، بالعدد الخاص من
مجلة « الثقافة » المصرية ، الذي صدر في ديسمبر ١٩٧٣ تأييداً لطله حسين .

خطة المستشرقين في الهجوم على الإسلام وآثارها المدمرة :

ولقد دأب هؤلاء على خطة مدروسة ، يلحّون بها على فكر الطلائع المثقفة من أبناء المسلمين ، وخاصة المفكرين والأدباء ، وأصحاب الدراسات القانونية في غمطها الأوروبي وأمثالهم .

وكانت هذه الخطة متعددة الوجوه والأبعاد ، تعتمد على إلقاء الشك والخيبة في نفس المثقف المسلم أولاً ، وتستمر — ثانياً — على نقد جوانب معينة من الإسلام في إلحاح مريب ، حتى تثبت في الأذهان مفاهيم مشوهة ، ثم تسرب إلى هذه النفوس الفارغة — من غير وعي منها في الغالب — تفسيرات وتخریجات جديدة لأحكام الإسلام تلتوي بها عن حقيقتها ومقاصدها تماماً !

ومن أمثلة ذلك : إلحاحهم على نقد مبدأ تعدد الزوجات عامة ، وزوجات النبي ﷺ خاصة ، وتجريح التشريع الإسلامي في هذا الشأن ، وكذلك نقدهم الدائب للفكرة التي اخترعوها وجسموها وألصقوها بالإسلام ، وهي فكرة انتشاره بالسيف ، وكذلك إلحاحهم على اتهام الإسلام بالجمود والرجعية ، وأنه هو العائق لانطلاق المسلمين وتقدمهم ، ثم المحاولة الدائبة لإقناع المسلمين « بعلمانية » الدولة ووجوب فصل الدين عنها ، حتى يتقدموا مادياً وحضارياً كما فعلت أوروبا !

من آثار الغزو الاستشراقي :

وقد أثمرت هذه المحاولات الخبيثة — بكثرة الإلحاح وتنوع

وسائله — انقلاباً فكرياً في مفاهيم هذه الطلائع المثقفة ، والتي كانت تؤول إليها قيادة أمتها فكرياً ، وسياسياً ، واجتماعياً ، وقانونياً .. إلخ ، فوقف بعضهم حينئذ حائراً متشككاً في دينه العظيم ، وبذلك عزل هؤلاء عن المعركة الفكرية الضارية ، وأمكن شل إرادتهم — من أول الطريق — فلم يستطيعوا الدفاع عن مآثرهم الخالدة .

وانماع كثير منهم في التيار ، فانقلبوا يهاجمون دينهم ويسخرون منه ، ووقف آخرون موقف الخجل من دينهم وتاريخهم ، أو محاولين الدفاع عنه عصبية وحمية لاعن اقتناع بتفرد في السمو والعظمة ! .

وكان من أخبث آثار هذا الهجوم الفكري هو قيام مدرسة فكرية جديدة بين المسلمين ، ترمي إلى تقريب الشقة بين تعاليم الإسلام ، وبين ماجاءت به حضارة الغرب من أفكار ونتائج ونظريات في ميادين الحياة .

وكان عماد هذا العمل هو تفسير الإسلام تفسيراً عصرياً ، يلائم الفكر السائد ، ومحاولة إيجاد نقط التقاء بين الخططين على تباينهما ، أو على الأقل تباعدهما .

وقد ألجأ الهجوم الفكري هذه المدارس إلى مواقف دفاعية غريبة عن الإسلام ، إذ جرّده من كثير من أحكامه الصريحة ، وجاءت له بمعان جديدة بعيدة كل البعد عما تلقاه المسلمون عن النبي ﷺ وأصحابه ، وذلك مثل : تعدد الزوجات ، والطلاق ، والحدود ، والربا ، والتمثيل ، حتى الجهاد في سبيل الله لم يسلم من التحوير ، والإغراب ، وتغيير ذلك كثير !

وهذه الأمور كلها بلغ فيها الإسلام الغاية العليا من الإحكام والسمو ، ولكنها عادت في منطق العقول المهزومة، وفي رؤية المدارس المغلوبة أمام الضغط الفكري الغازي — عادت مثالب ، أو نقاط ضعف في الإسلام تحتاج إلى دفاع ، أو هي — في أوهامهم — كانت فضائل صالحة لزمانها ، واحتاج التطور البشري إلى تعديلها .. إلخ !

ومن هنا رأينا منهم من يفرق بين (ربا الإنتاج) ، و (ربا الاستهلاك) ، ومنهم من يحاول إثبات منع تعدد الزوجات مستدلاً بالقرآن العظيم ذاته ، لأنه — بزعمهم — علقه على مستحيل وهو العدل المنفي في قوله تعالى : ﴿ وَلَنْ تَسْتَطِيعُوا أَنْ تَعْدِلُوا بَيْنَ النِّسَاءِ وَلَوْ حَرَصْتُمْ ﴾ النساء : ١٢٩ ، وليس بعد هذا تخليط أو التواء !

وكذلك رأينا من يبيح إقامة التماثيل محاولاً ليّ أعناق النصوص الإسلامية الصريحة ، ليبرر أنماطاً جاهلية ، جاءت في ركاب الحضارة الغازية ، وهي داء قديم في الأمم الضالة !!

ومن هنا أيضاً رأينا أعجب شيء في تاريخ المسلمين ، واحداً ممن ينتسب للإسلام ويتسمى باسم « العلماء » ويتخرج من أعظم معاهد الإسلام العلمية ، يقوم على رؤوس الأشهاد بكتاب يجرّد فيه الإسلام من جوانب الحكم والتنفيذ ، ويرده إلى مفهوم أوروبي المولد والمنشأ^(١) ، وينتهي به إلى معنى ضيق محدود ، فيدعي أنه « رسالة

(١) راجع في هذا « الاتجاهات الوطنية في الأدب المعاصر » ج ٢ ص ٧٤ حيث يذكر أمثلة تفصيلية لاعتقاد « على عبد أرازق » حتى فيما يتعلق بالإسلام، على كتب المستشرقين ، وراجع كتاب « الفكر الإسلامي الحديث وصلته بالاستعمار الغربي » ، حيث يذكر تأثره بالفكر الغربي (فصل دين لادولة) .

لإحكام ، ودين لادولة»^(١) وأغرب من هذا أن يستدل بنصوص القرآن الكريم ، فيحرف الكلم فيها عن مواضعه ، ويعتسف تأويلها ويأتي بما لم يقله أحد قبله^(٢) .

أما الحدود الإسلامية فلم يكتف أعداء الإسلام بتعطيلها ، بل ظلوا ينعون عليها قسوتها ، وهمجيتها الوحشية ، حتى ألقوا في روع المسلمين تخلفها عن الحياة العصرية ، وعن نتائج تجاربها العلمية والاجتماعية ، وبثوا في قلوب المسلمين النفرة والفرع منها ، وجعلوها دائماً عنواناً مرادفاً لمعنى « الحكم بالإسلام » مع أنها جزء من منهاجه الشامل ، يأتي في موضعه الحكيم ، ليحقق أعظم النتائج وأبرها بالأفراد والمجتمعات ، وبعد أن سبق برنامج كامل في العقيدة والأخلاق والعبادات والمعاملات^(٣) .

ولكي يجاري بعض المسلمين هذا الفكر الغازي أخذوا يأتون بالمضحكات المبكيات في تفسير النصوص الشرعية ، وخاصة المتعلقة بالحدود ، ويحرفون فيها الأحكام تحريفاً ، ويلتمسون لذلك أوهى الأدلة وأسقط البراهين ، حتى ليصدق على هذا النوع من الفكر ما وصفه به بعض الكاتبين من أنه :

(١) هذا عنوان ثياب الثالث من كتاب : « الإسلام وأصول الحكم » ، ص ٦٤ وما بعدها .

(٢) راجع في بيان هذا الرد عليه كتابي « المنهاج القرآني في التشريع » ص ٢٩٥ وما بعدها (من النسخة المكتوبة على الآلة الكاتبة) . وأيضاً كتاب : « المعاملات في الإسلام »

ص ٤٩ - ٥٧ .

(٣) راجع في تفصيل ذلك الرد عليه كتابي السابق : (المعاملات في الإسلام) .

« الفكر الإسلامي المغرَّب » « Westernized »^(١) بل نستطيع القول إنه شر من ذلك ، لأنه حين صدر من المسلمين أنفسهم حمل كل ضروب التلبيس ، ذلك لأنه فكر العدو الغازي ، ورد متكرراً في ثياب وطنية ذاتية ، ينبعث على المسلمين من داخلهم ، فلا يحسون بفداحته إحساسهم بفداحة الفكر الوافد على لسان العدو من مبشرين ، ومستشرقين !

ومن أمثلة هذا اللغو المثير ، مقاله بعضهم : « من أن النص القرآني لم ترد فيه عبارة من سرق ، بل ورد فيه (والسارق والسارقة) ، وهاتان الكلمتان وصفان لأفعالان ، والوصف لا يتحقق في الشخص إلا بالتكرار ، فلا يقال عمن ظهر منه الجود مرة أو مرتين إنه جواد .

ويرى البعض أن عقوبة قطع اليد إنما يقصد بها أن تكون أقصى العقوبة للسارق العائد ، الذي تكررت منه السرقة ، أي أنه يجوز العدول عن هذه العقوبة القصوى ، في بعض الحالات ، إلى عقوبات أخرى رادعة .. »^(٢) .

وفي النهاية كان من أخطر وأخيب نتائج هذا الغزو أن انحلت

(١) كتاب : « الفكر الإسلامي الحديث وصلته بالاستعمار الغربي » ، ص ١٧٦ ، وإن كنا نرى تعديل العبارة لأن هذا ليس فكراً إسلامياً ، وإنما هو فكر بعض المنتسبين للإسلام !! والإسلام وأمنه بريئان من هذا اللون كله .

(٢) راجع كتاب « مبادئ نظام الحكم في الإسلام » ص ٣٩٨ — ٤٠١ وفي هوامشه مراجعه وفيه كلام كثير حول هذا المراء !!

روح المقاومة والجهاد ، أو فترت و تراخت عن العهد بها دائماً ، ذلك العهد الذي وثقه القرآن عبر التاريخ في نفوس المسلمين ، والذي كان يرهب أعداء الله دائماً !

وقد سارت حركة الاستشراق في عديد من الاتجاهات لحل عقدة الجهاد وتهوينها في نفس المسلم ، منها الدعوة إلى الحياة « الروحية المثالية » ، وتمجيد النزعة الصوفية الاعتزالية ، والنعي الدائب على غزوات الإسلام وفتوحاته ، وانتشاره بالقوة بين الأمم ، وادعاء تناقضه بين المناذاة بالجهاد ، وتقريره للمبدأ العام ﴿ لا إكراه في الدين ﴾ البقرة : ٢٥٦ .. إلخ ...

ومن وسائلهم في ذلك ما يقرره الأستاذ المودودي :

« وقد جرت عادة الإفرنج أن يعبروا عن كلمة « الجهاد » بالخراب المقدسة « Holy War » ، إذا أرادوا ترجمتها بلغاتهم .

وقد فسروها تفسيراً منكراً ، وتفننوا فيه وألبسوها ثوباً فضفاضاً من المعاني الملفقة ، حتى أصبحت كلمة « الجهاد » عندهم عبارة عن شراسة الطبع والخلق ، والهمجية وسفك الدماء ، وقد كان من سحر بيانهم وتشويههم لوجوه الحقائق الناصعة ، أنه كلما قرع سمع الناس صوت هذه الكلمة « الجهاد » تمثلت أمام أعينهم مواكب من الهمج المحتشدة مصلثة سيوفها ، متقدة صدورها بنار التعصب والغضب متطاير من عيونها شرر الفتك والنهب ، عالية أصواتها بهتاف « الله أكبر » .. ما أن رأته كافراً حتى أمسكت بخناقه وخيرته بين أن يقول

كلمة « لا إله إلا الله » أو أن يضرب عنقه »^(١) .

وكان رد الفعل لهذا في أوساط كثير من مثقفي المسلمين — وخاصة الذين درسوا في أوروبا — مزيجاً من الخجل ، أو التبرير أو التسليم بهذه الأباطيل والانخداع بها ، ومتابعة أعداء الإسلام في القول بها ، والدعوة إلى فهم جديد للإسلام يجعله ديناً مقبولاً في نظر العالم المتحضر ، (مع أنهم لا يرضون عنا أبداً حتى نتبع ملتهم) !

ومن آثار ذلك دعوة السير أحمد خان في الهند لتحريف معنى الجهاد ، وتفسيره لآيات القتال تفسيراً غاية في الالتواء ، يطلها من حيث المعنى أو الزمان ، ومنه أيضاً دعاوي المذهب القادياني الذي يجيز نسخ الأحكام ، وينادي بتطوير الإسلام ليصلح — في زعمهم — لهذا الزمان !

ومن هذا الباب أيضاً تلك الآراء التي تفسر الجهاد تفسيراً دفاعياً محضاً ، وتجرد الإسلام من أصله الأصيل في الدعوة إلى دين الحق ، دعوة تحرسها قوة قادرة على ردع أعداء الله ، وعلى شق الطريق أمام الدعاة لبلغوا كلمة الله ، وقادرة كذلك على تأمين الشعوب والأمم من عسف طواغيتها لتقبل الإسلام ، أو على الأقل تسامحه حتى يمضي إلى غايته ، وهذه إحدى غايات القتال التي حددها القرآن الكريم :

﴿ وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة ويكون الدين كله لله ﴾

الأنفال / ٣٩

(١) رسالة « الجهاد في سبيل الله » للأستاذ أبي الأعلى المودودي ص ٣ وما بعدها تصرف

ونلفت النظر — في ختام هذه العجالة — إلى البحث القيم الذي لخص الدراسات الاستشرافية في جوانبها الثلاثة وهي : (الأسس التي قامت عليها ، وتقديرها لمصادر الإسلام ، وتقييمها للإسلام كدين) والتي استهدفت غرس عديد من المعاني في نفوس المسلمين . منها :

« الجماعة الإسلامية — كي تتطور — يجب أن تسير وفق المثل الغربية ، وتتفاعل معها في بيئتها الشرقية ... إذ اتجاهات الغربيين في الفكر والحياة قامت على مجموعة من التجارب الإنسانية ، استخدموا في تكوينها الطريقة « العلمية » ، وهي طريقة لاتتأثر بخرافة ، أو عقيدة خاصة بل تستهدف خير الإنسانية وحدها .

وإذن يجب على المسلمين باسم (العلم) ، و (التطور) ، و (الخير العام) ، أن يكونوا مسيحيين في موقفهم في الحياة ، وفي فهمهم الإسلام كدين ، ولا يجب أن يعتنقوا المسيحية كدين ، بل يجب فقط أن يكون سلوكهم في الحياة سلوكاً مسيحياً ، على نمط موقف « الجماعة الغربية » وأن يضعوا دينهم على نمط وضع المسيحية في المجتمع الغربي ، أعني نمط (العزلة) عن الحياة العامة ، وطريق ذلك :

— أن يبعدوه عن الحكومة ، والدولة ، والسيادة العامة .

— وعن علاقة الأفراد بعضهم مع بعض .

— وأن ينحوا عنه مظاهر القوة المادية وأسبابها ، كالجهاد والرغبة في الحروب والاعتداء .

— وأن ينحوا عنه مظهر « العنصرية » و « الاستعلاء الذاتي »
المتمثل في عدم قبول ولاية غير المسلم على المسلم ، وفي عدم زواج
المسلمة بغير المسلم .

— وأن ينحوا عنه كذلك مظاهر « الحياة الحيوانية » المتمثلة في
إباحة تعدد الزوجات .. «^(١) .

٣ — الشعبة التشريعية^(٢) :

ظلت الشريعة الإسلامية — بمعناها القانوني — تحكم المجتمعات
الإسلامية أكثر من ألف سنة ، وتلبي حاجات هذه المجتمعات ،
وتساير قضايا حياتها المتجددة ابتداء من مجتمع شبه الجزيرة العربية
القريب من البداوة ، وانتهاء بالمجتمعات في ذروة الحضارة ، والتي
بلغت حد التفوق العالمي ، والسيادة الواسعة في دمشق وبغداد ومصر
والأندلس .. إلخ .

ولكن هذه الشريعة العظيمة واجهت في القرنين الأخيرين حرباً
عاصفة من التشكيك في صلاحيتها ، والتآمر الخبيث على وجودها ،
والعمل الجاد لطردها من ميادين الحياة ، تحت مختلف الدعاوي ،
كرميها بالجمود ، والتعصب ، والتخلف عن مسيرة الحياة .. إلخ .
وقد استطاعت هذه السموم الفكرية ، أن تسري في عقول

(١) راجع هذا البحث بتمامه في كتاب « الفكر الإسلامي الحديث » للدكتور محمد البهر
ص ١٩٣ — ١٩٨ . وقد نقلنا عنه ببعض التصرف .

(٢) مَر ذكر الشعبة التعليمية ص ٧٧ ، والشعبة الثقافية ص ٨٥ .

مريضة من المسلمين أنفسهم ، حتى انتهت إلى ماقلناه سابقاً من بداية
انحياز عهد الحكم بالشرعية العظيمة قبيل الاحتلال !

وفي عهد الكفار المحتلين ، تم تنفيذ مخططاتهم الخاقدة ، فأسقطوا
هذه الشريعة عن عمد ، بالخدعة تارة ، وبالقوة تارة أخرى ، وبتأثير
الكفار المباشر أو بأيديهم الباغية ، ثم وضعوا مكانها شتاتاً من شرائع
الكفار وقوانينهم !

وقد بلغت الخديعة غايتها حين أوهموا أغرار المسلمين بأن
شريعتهم قد سقطت في صراع المناهج ، وسباق الشرائع المتطورة !
وينبغي أن نفرق هنا بين الشريعة الإسلامية في أصولها ومبادئها
وأحكامها كما جاء بها الوحي ، وأثرت عن النبي ﷺ وعن
أصحابه ، وبين « الفقه » الذي يقوم على الاجتهاد في استنباط
الأحكام الشرعية ، وقد أصابه الركود مثل ما أصاب أمته جميعاً في
كل نواحي حياتها ، ولكن الشريعة بأصولها ظلت على حالها شامخة
راسخة لاتدانيها اجتهادات العقول ، ولا تقاربها تجارب أوروبا
القانونية ، ولا شرائعها ، وأنظمتها التي كانت دائماً محل نظر
وخلاف شديد بين أساطين الفكر والقانون فيها ، والذين جاءوا
بمذاهب ومدارس متعددة ومتناقضة ، كما هو معلوم لمن درس
نظريات القانون الحديث وتاريخه .

ومن العجيب أنه في الوقت الذي كانت تسري فيه الغفلة إلى
كثير من المسلمين تجاه شريعتهم ، كان سمو الشريعة الإسلامية
وتفوقها المعجز يدفعان بعض الأوروبيين أنفسهم لإنصاف هذه

الشرعية والإشادة بها .

يقول الدكتور « أتريكو أنساباتو » في كتابه « الإسلام وسياسة الخلفاء » مقررأً ومحدراً :

« إن الإسلام إذا كان محدوداً غير متغير في شكله ، فإنه مع ذلك يسائر ماتقتضيه الظروف ، فهو يستطيع أن يتطور دون أن يتضاءل مع مرور القرون ، ويحتفظ بكامل حيويته ومرونته ، ولا يجوز أن تهدم الخلافة هذا الصرح العظيم من العلوم الإسلامية ، أو أن تغفله أو أن تمسه بسوء ، فقد أوجد للعالم أرسخ الشرائع ثباتاً ، شرعية تفوق في كثير من التفاصيل الشرائع الأوروبية » .

ولكن دولة الخلافة لم تصخ السمع لهذا النذير ، وغشيتها الدسائس الفكرية والسياسية والحرية من كل جانب ، فزحزحتها عن شرعية ربها ، وجرت وراءها كل الأقطار التابعة لها !! .

وقد قدمنا طرفاً مما يتعلق بضرب الشرعية قبل فترة الاحتلال^(١) ، ولكن الأخطر هو ما حدث بعد ذلك :

هدم الشرعية في ظل الاحتلال الكافر :

يشهد التاريخ أن الكفار الغزاة قد وقفوا لهذه الشرعية بالمرصاد ، وأعلنوها حرباً سافرة عليها بمجرد دخولهم بلداً من بلاد المسلمين ، وكانوا يسارعون بإحلال قوانينهم محل الشرعية في غفلة من

(١) انظر ص ٥٥ وما بعدها من هذا البحث .

المسلمين ، لأن الغزو الفكري كان قد مهد لهم الطريق ، واحتل سلفاً عقول وقلوب كثير من المثقفين ، وذوي الرأي من أهلها ، لذلك سهل على الكفار إحداث هذا الانقلاب الخطير وهم آمنون ، بل شجعهم هذا على التدخل لإعداد مناهج خاصة لعلماء الشريعة نفسها من طلاب مدارس القضاء الشرعي ، كما سنبين إن شاء الله^(١) .

أمثلة صارخة :

ولنأخذ أمثلة محددة لما فعله الاحتلال الكافر بهذه الشريعة ، على امتداد الرقعة الإسلامية الواسعة ، وهي نماذج متكررة لما فعلته فرنسا في غرب العالم الإسلامي (كالشمال الإفريقي) ، وما فعلته هولاندا في شرق العالم الإسلامي ، أو جزر الهند الشرقية التي صارت (إندونيسيا) الآن :

الأول — في الهند :

يقول الأستاذ أبو الأعلى المودودي : « إن أول قطر بدأ فيه إلغاء الشريعة الإسلامية هو الهند ، وكانت هذه الشريعة هي قانون الدولة العام في الهند حتى بعد أن قام فيها الحكم الإنجليزي ، فكانت يد السارق تقطع إلى سنة ١٧٩١ م ولكن الإنجليز أخذوا بعد ذلك يلغون القانون الإسلامي آنأ بعد آن ، ويستبدلون به القوانين

(١) انظر ض ١٢٩ وما بعدها من هذا البحث .

الوضعية ، حتى تم إلغاؤه في أواسط القرن التاسع عشر ، ولم يبق منه تحت النفاذ إلا ما كان يتعلق بمسائل النكاح والطلاق وغيرها ، على اعتباره قانون المسلمين لأحوالهم الشخصية .

ثم على منوال الحكومة الانجليزية في الهند نسجت الأقطار التي كانت حكومات المسلمين أنفسهم قائمة فيها ، فصاغت جميع ولايات الهند المسلمة قوانينها العامة شيئاً فشيئاً حسب قالب القانون الجاري في الهند البريطانية .

وضيقت نطاق الشريعة إلى قانون المسلمين لأحوالهم الشخصية^(١) .

المثال الثاني — في مصر :

فقد ذكرنا سابقاً كيف انتهت الأحوال بحاكم مصر « إسماعيل » إلى استجلاب القانون الفرنسي بنصه ليكون قانوناً للمحاكم « المختلطة » ، وبقيت الشريعة محكمة بين المسلمين ورعايا الحكومة المصرية إذا لم يكن طرف الخصومة أجنبياً^(٢) .

ولكن بعد سبع سنوات فقط من استجلاب القانون الفرنسي احتل الانجليز مصر سنة ١٨٨٢ م ، ثم بعد عام واحد أقدم الانجليز على عمل خطير ، إذ قصروا القضاء الشرعي الإسلامي على ماسمي

(١) راجع رسالة « القانون الإسلامي وطرق تنفيذه » ص ١٠ — ١١ (هامش)

(٢) راجع ص ٥٢ وما بعدها من هذا البحث .

« بالأحوال الشخصية » ، أما بقية المعاملات الهامة ، من تجارية ومالية وزراعية كالإجارة والرهن والبيوع والمبادلات والشركات ونحوها ، فقد أحوالوها إلى القانون الفرنسي ، المطبق في « المحاكم المختلطة » وجعلوه — مترجماً بنصه — قانوناً لما أسموه « بالمحاكم الأهلية » ليتحاكم إليها أهل البلاد أنفسهم في سائر معاملاتهم .

الحكم بغير ما أنزل الله :

وهذا الكيد السافر وقعت الأمة في انفصالية خطيرة ومدمرة بين ماسمي « بالقضاء الشرعي » وما سمي « بالقضاء الأهلي » ، وما يستلزمه كل منهما من تشريع مختلف المصادر والوجهة ، وكان من أخبث أساليب التهوين تسمية هذه المحاكم (بالأهلية) !

إن « الأهلي » يقع في مقابلة « الأجنبي » فكأن هذه المحاكم وطنية أهلية ، لأثر للأجنبي فيها ، وربما كان فعلاً معظم قضائياتها من جلدتنا ، ويتكلمون بألسنتنا ، ويحكمون باسم حكومة مصر ، وفي غمرة الاسم والشكل والمظهر أنسى الناس نوع الشريعة التي فرضت عليهم ليتحاكموا إليها ، وأنها شريعة العدو ، الغازي الكافر ، وقد بلغت الغفلة مداها حين أدخل هذا الأمر على المسلمين تحت دعاوي : (الإصلاح التشريعي والقضائي) !

وكان عماد هذا الخداع والتضليل تلك الطلائع النكدة التي أشربت قلوبها ثقافة العدو وفكره ، والتي تعلمت في مدارس ومعاهده ، وعلى رأسها « مدرسة الحقوق » التي أقيمت في عهد

إسماعيل على النمط الفرنسي ، مادة ولغة ونظاماً !!

ولو سارت القضية على طبيعتها لكان البدهي أن يقارن « الأهل » « بالشرعي » . لأنهما هما الوجهان المتقابلان في واقع الحياة ، وحينئذ يفهم على الفور أن ماعدا « الشرعي » فهو مضاد للشرع ولو أخذ من الأسماء ماشاء ، فسيكون في كل حال كفراً بالإسلام ، وفسوقاً عن أمره ، ومروقاً عن شريعته ، وبذلك تستثار عزائم الأمة دائماً لحربه ، ورفضه ونقضه ، ولو بعد حين !

لكن المسألة سارت على مارسم لها من تضليل وتزوير فكري مروع ، فاستبدلت كلمة « الأجانب » بالكفار ، و « الأهل » « بغير الشرعي » !

وسار الخداح ربه القوة ، ويعينه أعرار المثقفين من أمتنا ، حتى تم الاستبدال واستقر ، وأصبح بمرور الأيام معروفاً مألوفاً ، ثم اكتسب « شرعية » من ثباته الواقعي الذي تمضي به الأيام فلا ينكز ولا يغير ، وإنما يمتد ويشتد ويزحف على مساحات جديدة من أمور الحياة متحيفاً على شريعة الإسلام العظيمة !

القانون الفرنسي في حماية الانجليز :

ولقد يبدو غريباً أن تسمح انجلترا بقيام التشريع والقضاء في مصر على أسس فرنسية واضحة ، مع ما في هذا من كسب ثقافي وفكري وحضاري لعدوتها اللدود ، التي كانت تشتبك معها في صراع شامل .

وتفسير الأمر واضح تماماً ، فإنه مادام الهدف واحداً وهو ضرب الإسلام ، فإن الجهود تتناسق ، والأعمال تتوافق ، والخلافات تتناسى أمام هذا العدو المشترك ، وهو نفس الهدف الذي جمع الكنيسة والدولة على مابينهما من صراع كما بينا ذلك سابقاً !!

ويضيف « أهل القانون » سبباً موضوعياً آخر ، يوضح لنا مدى ارتكاز هذا « الاستبدال التشريعي » على أسس الغزو الفكري الذي سبقه ومهد له الطريق في فترة ماقبل الاحتلال .

يقول الدكتور محمود مصطفى أستاذ القانون المصري : « كانت هناك أسباب متعددة لتفضيل القانون الفرنسي ، منها أن القانون الفرنسي كان أقرب من غيره إلى فهم دارسي القانون المصريين ، فقد كانت — ولا زالت — ثقافتهم القانونية فرنسية ، ثم إن القانون الفرنسي كان قد مر بتجربة تطبيقه عشرات السنين ، فصدرت عليه شروح وتطبيقات قضائية كثيرة ، مما يجعل مهمة تطبيقه في مصر ميسرة »^(١) .

المثال الثالث — في تركيا :

وقد قدمنا كيف بدأت دولة الخلافة نفسها في إضاعة الشريعة الإسلامية ، واستبدال قوانين الكفار بأحكام الإسلام ، تحت وطأة الامتيازات الأجنبية ، وبتأثير الدول الأوروبية المباشر ، مستغلين ضعف الدولة وبعض هزائمها الحربية !

(١) كتاب « أصول قانون العقوبات في الدول العربية » ص ١١ .

دور الكفار في الردّة التركية :

ونضيف هنا بيان الدور الخطير ، الذي قام به الكفار المحتلون لتدمير كل مايتعلق بالإسلام وشريعته في تركيا ، مستعينين بالأجيال المفرغة من عقيدتها ودينها ، والمشحونة بكل ضلالات الغزو الفكري وأباطيله ، وهذه قصة يرويها شاهد معاصر ، ومعين لخلفيات الأحداث ، التي انتهت برّدّة السلطة الحاكمة في تركيا عن الإسلام وقيمه وآدابه وشريعته جملة ، نتيجة لفساد دين رجال هذه السلطة ، الذين وجد منهم الاحتلال تجاوباً وقبولاً لتنفيذ ماأشربته قلوبهم من عداوة الإسلام ، وميل عن طريقه ، وذلك عقب هزيمة تركيا في الحرب العالمية الأولى (١٩١٤ — ١٩١٨) واحتلال أرضها !

يقول مفتي فلسطين الحاج أمين الحسيني رحمه الله : « .. ولكن كمال بك أوعزى (أحد هيئة أركان حرب مصطفى كمال) الذي كان على اتصال مستمر بمصطفى كمال والذي لقيته مراراً في برلين عام ١٩٤٣ ، روى لي عن أوثق المصادر ماانتهت إليه المفاوضات ، فقال إن « كرزون » (وزير خارجية بريطانيا وقتئذ) وقف وقفة المتصلب ، وقال « لعصمت » (المندوب التركي في المفاوضات) : إننا لانستطيع أن ندعكم مستقلين ، لأنكم تكونون حينئذ « نواة » يتجمع حولها المسلمون مرة أخرى ، فتعود المسألة الشرقية التي عانينا منها كثيراً ..

وكان « عصمت » يعود للبحث والمشورة إلى أنقرة التي اتخذها مصطفى كمال مركزاً لحكومته ، ثم يرجع إلى لندن ، لاستئناف

المفاوضات ، وكانت تركيا حينئذ منهوكة القوى من الحروب الطويلة... فرأى مصطفى كمال أن يخضع للضغط ويتعهد للإنجليز وحلفائهم بكل مايطمئنهم إلى أن استقلال تركيا لن يكون خطراً عليهم، ولن يسبب لهم في المستقبل مايقض مضاجعهم !

شروط كرزون الأربعة :

وعندئذ أُملى الانجليز شروطهم المعروفة بشروط « كرزون » الأربعة وهي :

- ١ — أن تقطع تركيا صلتها بالإسلام .
 - ٢ — أن تلغي الخلافة .
 - ٣ — أن تتعهد بإخماد كل حركة يقوم بها أنصار الخلافة .
 - ٤ — أن تختار تركيا لنفسها دستوراً مدنياً بدلاً من الدستور العثماني المستمد من أحكام الشريعة الإسلامية والقائم على قواعدها .
- وأضاف « كمال بك أوىرى » إلى ذلك قوله :

« إن تركيا اختارت دستور سويسرا المدني ، ونفذت شروط الإنجليز الأربعة التي أمليت عليها ، وكان مما تفرع على ذلك استعمال الحروف اللاتينية بدلاً من الحروف العربية ، ومنع إقامة الأذان باللغة العربية ، ومنع تعليم الدين والقرآن في المدارس ، وغير ذلك مما تحدده الشروط المذكورة ! »^(١) .

(١) مذكرات مفتي فلسطين ، الحلقة ١١ ، المنشورة بمجلة آخر ساعة المصرية عدد ١٩٩٢ . بتاريخ ٢٢ من ذي القعدة ١٣٩٢ هـ (١٩٧٢/١٢/٢٧) . والحاج أمين توفى بعد ذلك سنة ١٣٩٤ هـ — ١٩٧٤ م رحمه الله تعالى ! .

ودور الغزو الفكري :

وإننا على ثقة ويقين من أن الكفار المحتلين ماكانوا ليلبغوا مابلغوه ، لولا أن طاغية الترك وأضرابه كان لديهم الاستعداد الكامل لشراء دنياهم بدينهم وعقيدتهم ، التي رثت في نفوسهم ، وتلاشت بفعل الغزو الفكري الطويل ، الذي غرس في قلوبهم الشبهات والشهوات والأباطيل ، ولقنهم مناهج « وأيديولوجيات » تكفر بالله وبالمرسلين ، وتلحد في الوحي والدين ، حتى لقد كتب بعض أنصار طاغية الترك يقول : « إنا عزمنا على أن نأخذ كل ماعند الغربيين ، حتى الالتهابات التي في رئيهم ، والنجاسات التي في أمعائهم »^(١) !

وقد نقل مثل هذا القول عن « عصمت إينونو » المفاوض التركي الذي تمت على يديه الشروط السابقة ، وكان هذا القول يمثل تماماً خطة زعيمهم طاغية الترك (مصطفى كمال !) وأفكاره واتجاهاته ، كما نفذها على مسرح الحياة التركية ، حين تم له الأمر^(٢) .

(١) يقصد استحلال الخمر ، والخنزير ، وغيرها من المحرمات ، وهذا غاية العمى في التقليد ، والعجيب أن زعماء الردة التركية أخذوا هذه الأشياء فقط ، ولم يأخذوا الجانب الجاد الصارم من الغرب !!

(٢) يراجع في هذا كتب ومقالات شيخ الإسلام مصطفى صبري رحمه الله مثل كتابه « موقف العقل والعلم والدين .. » وكتابه : « النكير على منكري النعمة » وفيهما تفصيلات وافية للآثار المروعة التي حققها الغزو الفكري في الأجيال التي تم على أيديها الانقلاب التركي والردة عن الإسلام !

قانون الكفار في ثياب وطنية :

وعن هذه الطرق الثلاثة (الهند ، مصر ، تركيا) وما شابهها تغفل تشريع الكفار في أحشاء الأمم الإسلامية ، ثم لم تلبث هذه القوانين — بمرور الوقت ، وارتباط مصالح الناس بها — أن اكتسبت صفة الثبات والاستقرار و « الشرعية » الواقعية ، فصارت تنقل لشعوب المسلمين بأسمائها الجديدة المزورة مثل : القانون الهندي ، والقانون المصري ، أو العراقي .. الخ وكان هذا ذروة التلبس ، حيث لا يفتن كثير من الناس إلى جذور هذه القوانين وأصولها الأجنبية ، المضادة لشريعة الله عز وجل !

وعلى سبيل المثال : ظل السودان يحكم بالشرعية الإسلامية منذ الفتح الإسلامي وحتى القرن التاسع عشر الميلادي (في عهد دولة الفونج وسلطنة دارفور) وما إن استقرت أقدام الانجليز في السودان ، حتى أخذوا في وضع قوانين جديدة كقانون العقوبات رقم ١١ لسنة ١٨٩٩ ، وقد أخذ أساساً من قانون العقوبات الذي وضعه الإنجليز للهند سنة ١٨٦٠ م .

ويعلق أحد أساتذة القانون الجنائي على هذا فيقول :

« كانت ظروف الهند مشابهة لظروف السودان ، ليس فقط من حيث الاحتلال الانكليزي لها ، وإنما أيضاً من حيث تطبيق الشريعة الإسلامية ، فقد كانت كذلك مطبقة في الهند في المسائل الجنائية ، حتى حل محلها القانون الانكليزي في المدن الكبرى ، إلى أن صدر قانون العقوبات الهندي ، وقد استقيت أحكام هذا القانون من قانون

« لوزيانا » والتشريع الإنجليزي ، ومن القانون الفرنسي وكذلك صار القانون الهندي. مصدراً لقوانين باكستان ، وسيلان وبورما والملايو وسنغافورة ، وعدن وحكومات الخليج الفارسي وغيرها^(١). وفي العراق : استبدل الإنجليز فور الاحتلال بقانون الجزاء العثماني قانوناً جديداً أصدره قائد قوات الاحتلال (١٩١٨ م) باسم « قانون العقوبات البغدادي » .

وقد اعتمد شارعوه على قانون التحقيق الجنائي السوداني في وضع قانون المحاكمات الجزائية البغدادية ، أما قانون العقوبات ذاته فاستمد من قانون الجزاء العثماني (الذي بينا سابقاً انحرافه عن الشريعة بسبب كيد الدول الكافرة)^(٢) ، مضافاً إليه قانون العقوبات المصري الذي وضع ١٩١٧ ولم يقدر له أن يصبح قانوناً رسمياً واشتهر باسم مشروع « بردونيوت » .

وفي تونس : صدر قانون العقوبات بعنوان « المجلة الجنائية » سنة ١٩١٣ م ونفذ عام ١٩١٤ م ، واقتبست نصوص هذه المجلة من قوانين فرنسا وتركيا ومصر وإيطاليا .

أما لبنان فاستمد قانونه من القانونين : الإيطالي والسويسري ، ثم من القانون اللبناني استمدت سوريا والأردن^(٣).

(١) راجع كتاب « أصول قانون العقوبات في الدول العربية » (هامش ص ١١) حيث ينقل عن كتاب : « القانون الجنائي ، مبادئه الأساسية ونظرياته العامة في التشريعين المصري والسوداني » ص ٢٦ للأستاذ محمد محيي الدين عوض .

(٢) راجع ص ٥٨ وما بعدها من هذا البحث .

(٣) أصول قانون العقوبات ص ١٣ — ١٤ .

ومن هذا يتضح دور الكفار المحتلين في تدمير الشريعة الإسلامية ، لافرق بين احتلال انجليزي أو فرنسي أو هولندي أو أي اسم آخر إلا في الوسائل والأشكال ومقتضيات الأحوال ، كاللجوء إلى الحيلة والتغيير الهادىء ، أو استخدام القوة في فرض شرائعه إذا قامت في وجهه مقاومة جادة .

ومن هذا الأخير مافعلته فرنسا حين أصدرت في مايو ١٩٣٠ م مجموعة القوانين التي أطلق عليها اسم : «الظهير البربري» والتي عزلوا بها مسلمي البربر عن التشريع الإسلامي حتى في مسائل الأحوال الشخصية ، وعن الثقيف الإسلامي والمدارس القرآنية !

وقد تحدث « سوردون » Sordon واضع هذا التشريع فقال : « إن الأسلحة الفرنسية هي التي فتحت البلاد البربرية ، فلأصحاب هذه الأسلحة الحق في اختيار التشريع الذي يجب تطبيقه في البلاد .. وإذا كانت العادات العرفية البربرية (أي التي كانت للبربر قبل إسلامهم) لم يكن لها مناص من الازمحلال أمام مشروع مدون ، فلماذا لاتضمحل أمام شرعنا نحن الفرنسيين ؟ »^(١) .

أهداف هذا الانقلاب التشريعي وآثاره :

إن الغاية الأساسية لدى كهنة الإلحاد العالمي هي غاية قديمة ورثوها عن آباء الكنيسة الحاقدين ، وتنحصر في هدم الإسلام ، وقد

(١) راجع مقال «من الإسلام إلى الإيمان» للأستاذ محب الدين الخطيب رحمه الله المنشور في مجلة الأزهر ، مجلد ٢٢ — المحرم ١٣٧٧ هـ .

اشتبكت بها رغبة مادية عارمة ترمي إلى استنزاف ثروات الشعوب الإسلامية وكنوز أرضها ، فجاءت هي الأخرى باعثاً وحافزاً لهم ليشددوا التركيز على إزاحة الإسلام عن طريقهم ، باعتباره أكبر عائق لهم عن الوصول إلى أغراضهم ، لأنه ينفث في صدور أتباعه حماية مقدسة لاتعرف إلا إحدى الحسينين ، وتؤجج في الضمير كل بواعث الجهاد والاستشهاد .

وكان هذا التغيير التشريعي واحداً من الوسائل الخطيرة التي استخدموها لتحقيق مآربهم الدنيئة ، وقد حققوا به أموراً على غاية النكر والبشاعة منها :

١ - تغيير المجتمع تحت مظلة القانون الوافد :

ذلك لأنه من المقرر أن القانون — من حيث هو — يستهدف أحد أمرين :

إما الحفاظ — بقوة السلطة — على وضع قائم يراد له البقاء والاستمرار .

وإما العمل لتحقيق وضع غير موجود يراد له التمكن والانتشار .

وقد أقام الإسلام مجتمعاته على أسس أخلاقية سامية ، وتولت الشريعة الإسلامية — بمعناها القانوني — تحديد هذه الأخلاق ، وحمايتها بالحدود والتعزير فاستقرت في المجتمع قروناً عديدة ، وهي تشكل أنماط سلوكه الظاهرة وواجهته العلنية ، فلم تعرف مجتمعات

المسلمين دور البغاء المرخصة ، ولا حانات الخمر ، ولا بيوت المراهنات والقمار ، ولا وسائل إشاعة الفاحشة كالملاهي والمراقص .. إلخ .

وغاية ما وجد من ذلك أن يكون منكراً يتخفى ، ويلوذ بالجُذر ، لأن الشريعة — باعتبارها قانون الأمة السائد — تحرمه وتعاقب عليه ، والعرف العام الذي رسّخته الشريعة في المجتمع يستنكره ولا يسكت عليه .

فلما هبت على المسلمين أعاصير الاحتلال حملت معها كل الموبقات الأوروبية فأخذت تندلع وتشيع ، ثم جاء القانون الوافد حامياً لها ، بل لانغالي إذا قلنا إنه أنشأها وشجع عليها ، ويتضح ذلك في الأمرين التاليين :

الأول — دور القانون الوضعي في الانحلال الخلقي :

وهذا أمر على غاية العجب والخطورة ، لأن من شأن القانون — أي قانون — حماية المجتمع لإفساده ، وضبط المعايير الاجتماعية لاحتلالها وإطلاقها ، لكن القانون الوافد وضع ليحدث في المجتمع عكس المشروع والموضوع على طول الخط !

ويشرح الدكتور إبراهيم اللبان هذا الأمر فيقول بعد أن عد الشرور الوافدة : « ويمكن أن نقول إن من أهم العوامل في هذا المجال ، حلول القانون الوضعي محل الشريعة الإسلامية في ضبط حياة الأمم الإسلامية ، والسيطرة عليها ، وتوجيهها ، ثم ماطراً على التربية الدينية من تغيير عميق .

أما الانقلاب الذي جاء به التشريع ، فلم يكن مجرد إحلال قانون محل قانون آخر ، بل إنه هز الأخلاق الإسلامية من أساسها ، ويرجع هذا إلى أن مبادئ القانون الوضعي تختلف عن أسس الشريعة الإسلامية اختلافاً أساسياً ، فالقانون الوضعي يرى مهمته مقصورة على تنظيم الصلات الاجتماعية ، أما السلوك الفردي فإنه لا يتردد في التصريح بأنه يقع خارج نطاق سلطانه ، وأنه من أجل ذلك متروك لحرية الفرد ، ومن ثم فإنه لا يعاقب على المنكرات والفواحش ، أما الشريعة الإسلامية فقد وضعت على أساس مبدأ مختلف ، فالسلوك الفردي كالسلوك الجماعي يقع تحت طائلة القانون الإسلامي ، وعلى هذا الأساس يقوم تشريع الحدود وضروب التعزيرات في شرب الخمر والقمار والزنا ونحوه .

وما كاد القانون الوضعي يحل في البلاد الإسلامية محل الشريعة ويعطل الحدود والتعزير ، حتى سنحت الفرصة لشذاذ الآفاق وطلاب الربح الحرام من الغربيين فأقبلوا من كل صوب ، وشرعوا ينشرون الحانات ودور الفساد في جميع أرجاء البلاد الإسلامية ، فكان هذا بداية انقلاب أخلاقي واسع المدى يقوم على أساس الانطلاق من قيود الأخلاق والدين .. وكانت الخطة العامة التي رسمها الاستعمار لبلوغ مآربه هي الاستعانة بالقانون الوضعي على إطلاق سراح الشهوات من قيود الشريعة»^(١)

الثاني — دور القانون الوضعي في التخريب الاقتصادي :

(١) رسالة « التربية الدينية » السابق ذكرها .

فمن المعلوم أن الشريعة الإسلامية تحرم تحريماً قاطعاً جميع الفوائد الربوية في سائر المعاملات ، كالرهون ، والمضاربات (القراض) ، والقروض بنوعيتها : الإنتاجي والاستهلاكي ... إلخ .

ولذلك ظلت المجتمعات الإسلامية بنجوة من لعنة الربا طوال تاريخها بسبب تعاليم هذه الشريعة الهادية ، فلما خالفوا عن أمرها حق فيهم نذير الله للمبرزين : ﴿ فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا فَأْذَنُوا بِمَحْرَبٍ مِنَ اللَّهِ ﴾ ورسوله ﴿ البقرة : ٢٧٩ ، ومن ثم اجتاحتهم النكبات ، وعضتْهم الأزمات ، واجتالتهم الشياطين عن دينهم !

ولقد كان أول نقب في بناء الشريعة الإسلامية ، وأول ثغرة تسللت منها قوانين الكفار وشرائعهم ، هي ثغرة القروض الربوية التي توسع فيها بعض حكامهم لإرضاء نزواته وقد شرحنا طرفاً من ذلك فيما مضى .

فلما دخل الاحتلال كان أول ما استهدفه هو إسباغ ثوب « المشروعية القانونية » على هذا اللون من المعاملات المحرمة ديناً ، والمستنكرة غاية الاستنكار عرفاً ، ولذلك عمد المحتلون إلى جميع ما حرّمته الشريعة من الأرباح والفوائد ، فأباحوه عن طريق القانون الوضعي ، وقد أدى هذا الوضع — مع ضعف المسلمين — إلى تسرب معظم الثروات إلى أيدي الكفار من كل جنس ولون ، حتى وصلت قيمة الرهون والديون وفوائدها إلى حد استغراق ثمن جميع الأرض الزراعية وحاصلاتها لآماد طويلة في بلد عريق الخصوبة مثل القطر المصري !

« وهذا مادعا الإنجليز في كل مفاوضاتهم إلى التمسك بمستشار لوزارة العدل (الحقانية وقتئذ) يسيطرون به على المجتمع المصري عن طريق التشريع ، وبمستشار لوزارة المالية ، يسيطرون به على القوة التي تجعل الكلام عملاً ، وتحيل الأفكار إلى بناء ماثل ، وكانت حاجتهم التي يسترون بها أهدافهم الحقيقية في التمسك بمستشاري (العدل والمالية) هي المحافظة على مصالح الأجانب »^(١) .

٢ — هدم الإسلام في جانبه القانوني العملي :

وذلك عن طريق ربط مصالح الناس الحيوية بقانون آخر يستقطب جهودهم ، ويصرفهم عملياً عن الاهتمام بأحكام الشريعة الإسلامية ، فتموت هي الأخرى عملياً ولو بالتدرج ، على حين تنتقل الحياة والحركة والاهتمام والنشاط إلى شرائع الكفار ، ويتركز حولها !

وقد أخذ هذا الاتجاه طريقين نكدين حققا الغايات المستهدفة إلى أبعد الحدود :

الطريق الأول : عام ، يربط جمهور المتقاضين المسلمين أنفسهم بشرائع الكفار ، لأنها أصبحت قوانين الدولة صاحبة القوة والتنفيذ ، والتي لاسبيل إلى قضاء مصالحهم إلا من خلالها ، وخاصة في الخصومات ، ومن ثم اتجه الناس إلى محاكم هذه الشرائع وقضاتها ،

(١) الاتجاهات الوطنية في الأدب المعاصر ج ٢ ص ٢٦٤ « الأصل والهامش » .

ومحاميها وخبرائها يسألونهم عن حكم القانون في كذا وكيت ، لاعت
حكم الشريعة ، التي حصرت في زوايا الأحوال الشخصية ، وكان
هذا من أخطر الانقلابات الفكرية والعملية التي أدخلت على
المسلمين ، وزينت لهم في ثياب الإصلاح والتقدمية والمدنية .. إلخ .

والمستشرق الانجليزي « جب » يسجل هذه الظاهرة ، وهو
يعدد تسرب مظاهر التأثير الغربي على المسلم العادي رغم أنفه
فيقول :

« وهو يجد الرجوع إلى المحاكم الشرعية لا يغنيه شيئاً في كثير من
مصاعب حياته ومشاكلها ، بل يجد نفسه خاضعاً لقانون مدني قد
لا يعلم له مصدراً صحيحاً يستمد سلطانه منه ، ولكن لاشك أن هذا
القانون لا يستمد سلطانه من القرآن ولا من السنة الصحيحة »^(١) .

الطريق الثاني : خاص ، يربط فئة من خلاصة المثقفين المسلمين
بدائرة نفوذه الفكري ربطاً محكماً ، وهم الطبقة القائمة على هذا
القانون الوافد دراسة وتعليماً ، وأستاذية وقضاء وتياية ومحاماة ..
إلخ .

وكل هذا يقتضي استمرار إتقان لغات العدو ومصطلحاته
القانونية ، ومتابعة شروح فقهاءه ، وشد الرحال إلى عواصمه للتلقي
عن أساتذته ، والتخصص القانوني في جامعاته ومعاهده ، وإطراد
الاقتراس والأخذ والرجوع إلى نظمه التشريعية وسوابقه القضائية ،

(١) كتاب : « وجهة الإسلام » ص ٢١٨ (الخاتمة) .

مع ما يتبع ذلك عادة من فتنة المجهور واعتزاز المغلوب بالتلمذ على
أعلام القانون والتشريع في دول الحضارة الغالبة !

ولقد أدى هذا كله إلى تخريب مزدوج النتائج في الشخصية
الإسلامية ، حيث اتجه الفكر والولاء والتلقي التشريعي إلى قبله
الغرب ، واستدبرت بالتالي قبله الشرق العلمية جملة ، فكان الطالب
وأساتذته المسلمون أنفسهم يذكرون « سافيني » و « أوستن »
وأضربهما من أساطين القانون الغربي بالفخر والاعتزاز ، في الوقت
الذي يخجلون أو يجهلون كل ما يتعلق بأئمة الفقه الإسلامي كأبي
حنيفة والشافعي وأضربهما ممن يكفي الواحد منهم لفخر الدهر
كله ، وكانوا يشيرون بالبنان إلى مجموعات « نابليون » القانونية ،
ولا يكادون يعلمون شيئاً عن المجموعات الفقهية الإسلامية
« كمدونة » مالك ، و « الألف » للشافعي ونحوهما .

فإذا لاحظنا أن هؤلاء القانونيين المحدثين كانوا قادة لأممهم في
ميدان القضاء والتشريع ، وأن كثيراً منهم كان يتصدى لقيادة أمتهم في
المجال السياسي ، ويصل إلى مناصب عالية في دوائر الحكم والتوجيه
والتنفيذ ، إذا لاحظنا هذا علمنا كيف أدى هذا الغزو التشريعي في
جانبه القانوني والفكري ، إلى أفدح النتائج وأبشع صور التخريب في
كيان الأمة المسلمة وشريعتها !

التعليم الحقوقي :

ومن المناسب أن نذكر هنا شيئاً عن آثار التعليم الحقوقي بذاته ،

وقد كان من أهم دعائم القانون الوافد بمدارسه ومعاهده ثم كلياته الجامعية التي انتهت إلى « التعريب » الكامل في البلاد العربية ، ناهيك عن غيرها من البلاد التي لا تتكلم بلغة العرب ، وقد أصبحت هذه الكليات في جميع البلاد تبدو للناظر — بادي الرأي — جهداً وطنياً ذاتياً للغاية ، كأنه لا يستمد أصوله ومقوماته كلها من وراء البحار ، وشرائع الكفار !

ولعل من أقدم المؤسسات الحقوقية في بلاد المسلمين مدرسة « الحقوق المصرية » التي أسسها الطاغية إسماعيل في فترة حكمه لمصر (١٨٦٣ — ١٨٧٩) لدراسة القانون على نمطه الأوروبي ، وكان المتفوقون والقادرون من خريجيه يستكملون دراساتهم القانونية في جامعات فرنسا ومعاهدها، ويتلمذون على أعلام القانون والتشريع فيها !

وكان إنشاء هذه المدرسة عملاً متسقاً تماماً مع قيام « المحاكم المختلطة » في مصر (١٨٧٥ م) بتشريعها الفرنسي ، وكذلك كانت هذه المدرسة أكبر الوسائل الفكرية والعملية لتدعيم هذا القانون الوافد ، والغريب على المسلمين ، ومدّه بكل أسباب البقاء والتماء ، لأنها أدت إلى قيام « طبقة قانونية » جديدة من المسلمين أنفسهم لتحل محل الأجانب في دوائر القضاء والتشريع ، حتى يصبح هذا الانقلاب الخطير ذا شكل وطني في ظاهره ، ويقوم على جهود ذاتية من داخل البلاد تكفل له الاستقرار والاستمرار ، حتى بعد رحيل الكفار !

وقد تطورت هذه المدرسة وأمثالها في بلاد المسلمين حتى

أصبحت «كليات» جامعية توسعوا في مناهجها ، وترجموا لها أمهات كتب القانون الأجنبية ، ثم جاء الطور الأخير الخطير وأصبح التعليم والتدوين القانوني عربياً بحتاً ، أو باللغات الوطنية في كل إقليم ، وكان هذا هو غاية التلبس ، لأن هذا كله يستمد جذوره وأصوله وفلسفته ونظرياته بل حتى سوابقه القضائية وشروحه الفقهية يستمدها من القوانين والمصادر الأجنبية عامة ، والفرنسية منها بوجه خاص ! وفي ظل الاحتلال — وتحت حراسته — غدت هذه الكليات تقذف المجتمع الإسلامي كل عام بألوف من خريجيها ، وفتح أمامهم الطريق ليحتلوا مراكز أساسية في حياة أممهم ، كالقضاء والنيابة ، والمحاماة ولجان التشريع .. الخ .

وأصبحوا بذلك « طبقة » جديدة ، متميزة في قلب الأمة المسلمة ، تقوم حياتها ومعاشها وأفكارها وثقافتها وتعليمها التخصصي على أساس غربي وافد ، بحجة الشريعة ويقوم على أنقاضها ، مهما تزَيَّ في طوره الأخير بأزياء وطنية ، أو قاده قوم « من جلدتنا ، ويتكلمون بألسنتنا » كما وصفهم النبي ﷺ في حديث الفتن (الذي رواه البخاري)^(١) .

ولكن الحقيقة تبقى وراء ذلك كله ، ناطقة بالأصل الذي ينتسبون إليه ، والمورد الذين يستقون منه ، والذي وصل بهم كما يقول الدكتور عبد الحليم محمود : « إن الأمر قد وصل بالاستعمار أن صاغ خريجي كليات الحقوق بحيث لا يفهمون بعد (اللسانس) كتاباً

(١) سبق تخريجه ص ١١

عريباً في المواد التشريعية، وليس الأمر بغريب .. إن جدول التدريس في كليات الحقوق يخصص عشرين محاضرة في الأسبوع للقوانين الأوروبية ، ومحاضرتين فقط للشريعة الإسلامية !

أترى لو أنشئت هذه الكليات في فرنسا ، وانجلترا كانت تفعل أكثر من ذلك ؟! وهذه الكليات هي سر تخلفنا في التشريع «^(١) .

وليس هذا التخلف الحالي ناتجاً عن قصور في الشريعة الإسلامية ، وإنما نشأ بسبب العزلة القاتلة التي ساقوا إليها الفقه الإسلامي ، والتي أدت إلى عزل أصحابه وانحصارهم في دوائر ضيقة ، ولولا أن هذا الفقه دين لبادت آثاره لكثرة ما صُبَّ عليه من التآمر والحقد والإهمال !

وقد وصل الأمر إلى نتائج المقصودة ، فأصبح لهذه الطبقة القانونية الجديدة انفصال تشريعي كامل ، له مؤلفاته الخاصة ومناهجه ومدارسه وأساتذته ، ومشروعوه ومؤصلوه، وشرّاحه ومفسروه ، ومجتهدوه ومرجموه ، وأصبحت الأمة في النهاية تحكم بهذا « الدين » الوضعي المبتدع ، ويقوم عليها في التنفيذ والتطبيق : المسلم والكافر قضاء وتشريعاً وما بينهما !

(١) راجع مقال « اللجنة تحت ظلال السيوف » المنشور في مجلة « آخر ساعة » المصرية بتاريخ ١٤ رمضان ١٣٩٣ هـ ، أكتوبر ١٩٧٣ .

وراجع أيضاً كتاب « الحمد لله هذه حياتي » ص ٦٤ وما بعدها ، إلى ص ١٨٠ ، وقد اطلعت عليه أثناء إعدادي للطبعة الرابعة من كتابي هذا .

مشروعية الكفر :

وكما قدمنا أدى هذا الوضع الخطير إلى اكتساب القوانين الوافدة شرعية واقعية ، لأنها أصبحت شريعة الدولة ، التي تقوم — بقوتها — على تنفيذها ، وتنفق أموال المسلمين على إعداد القائمين بها ، ثم يقومون بدورهم — كما رأينا — بتدعيمها ، ومدها إلى كل آفاق الحياة ، واقعيًا : بالتقنين والتطبيق ، وفكريًا : بتعريبها وهضمها وتسريبها إلى حياة المسلمين وكأنها فكر ذاتي !

تطوير الأزهر وشيوخه :

على أن الأمر لم يقف عند هذا الحد ، بل حاول الاحتلال محاولة فكرية أخرى ترمي إلى تطوير الشريعة الإسلامية نفسها تطويراً غريباً ، يقربها من مناهجه وشرائعه ، ويزيل الفجوة الهائلة بين النمط التشريعي الإسلامي ، وبين القوانين الوضعية على ما بينهما من خلاف في الأصل والهدف والأسلوب .

وكانت الخطة تعتمد على تربية جيل جديد من رجال الشريعة الإسلامية على مناهج خاصة تنتهي به إلى هذا التقارب الفكري والعملي بين الأضداد !

وعلى سبيل المثال لهذا الكيد الذي لاينام ، جاء في تقرير اللورد كرومر — عميد الاحتلال في مصر — بصدد مشروع مدرسة القضاء الشرعي الذي وضعه الشيخ محمد عبده مع آخرين بتكليف من كرومر ، جاء فيه قوله :

« كنت أتصل بين الحين والحين بالبارون « كالي » حاكم « البوسنة »^(١) ، لتبادل الرأي في الموضوعات ذات الطابع المشترك . وقد استطعت أن أحصل — بفضل مساعدته ، ومساعدة خلفه — على معلومات وافية عن الكلية التي أنشأتها حكومة النمسا والمجر في « سارجيفو » لتخريج القضاة (يقصد قضاة الشرع المسلمين) وهي كلية قد أثبتت نجاحها من كل الوجوه ، وقد وضعت هذه المعلومات تحت تصرف لجنة ذات كفاية ممتازة ، يرأسها المفتي الأكبر السابق بقصد وضع خطة مشابهة ، تلائم ظروف مصر وحاجاتها ، وقد أتمت اللجنة عملها في شهر يونية السابق ، ووضعت النظم المقترحة تحت تصرف الحكومة ، وهي الآن قيد البحث في وزارة العدل (الحقانية وقتئذ) وهذه النظم تزود الطالب ببرامج ثقافية ذات طابع تحرري : (of aliberal chatacter) لاتحصر الطالب في الدراسات الدينية الخالصة^(٢) .

ولقد كان هذا العمل مقدمة لما يراود المختلين من آماني في « تطوير الأزهر » كله ، وتغيير معايير ومفاهيمه الإسلامية ليصبح شيوخه أكثر قبولاً للأوضاع الوافدة ، كالوطنية والقومية ، ولتنحل فيهم عقدة الرفض لكل ما هو « غير إسلامي » ، حتى يمكن التفاضل

(١) البوسنة : إقليم إسلامي يقع في البلقان « شرق أوروبا » ، وهو الآن جزء من « يوغوسلافيا » يعاني أهله العذاب من التسلط الإلحادي !

(٢) تقرير سنة ١٩٠٥ م فقرة ٩٨ ص ٤٩ من الأصل الانكليزي ، كما نجده في كتاب « الاتجاهاات الوطنية » .. ج ١ ص ٣٣٥ وما بعدها .

مع أجيالهم الحديثة ، لتعيش « العلمانية » — على الأقل — إن لم يمكن احتواؤهم ونقل ولائهم التام إلى هذه « الجاهلية » الطاغية !
وليس هذا ظناً أو تخميناً ، وإنما هو — فعلاً — السياسة الثابتة للاحتلال ، تتابع عليها خلفاء « كرومر » ، حتى بعد الثورة المصرية سنة ١٩١٩ م ، كاللورد « لويڤ » (مندوب الاحتلال سنة ١٩٢٥ م وما بعدها) الذي يقول صراحة :

« إن التعليم الوطني — عندما قدم الإنجليز إلى مصر — كان في قبضة الجامعة الأزهرية الشديدة التمسك بالدين ، والتي كانت أساليبها الجافة تقف حاجزاً في طريق أى إصلاح تعليمي ، وكان الطلبة الذين يتخرجون في هذه الجامعة يحملون قدراً عظيماً من غرور التعصب الديني ، ولا يصيبون إلا قدراً ضئيلاً جداً من مرونة التفكير والتقدير .

فلو أمكن تطوير الأزهر — عن طريق حركة تنبعث من داخله هو — لكانت هذه خطوة جليلة الخطر ، فليس من اليسير تصور أى تقدم طالما ظل الأزهر متمسكاً بأساليبه الجامدة ، ولكن إذا بدا أن هذا الأمل غير متيسر تحقيقه ، فحينئذ يصبح الأمل محصوراً في إصلاح التعليم اللاديني الذي ينافس الأزهر ..

وعند ذلك فسوف يجد الأزهر نفسه أمام أحد أمرين : فإما أن يتطور ، وإما أن يموت ويختفي .. »^(١) .

(١) انظر : الاتجاهات الوطنية ، ج ٢ ص ٢٨٧ وما بعدها ، وهو ينقل هذا من كتاب « لويڤ » الذي ألفه سنة ١٩٢٣ م وعنوانه : Egypt Since Cromer أي : مصر منذ كرومر .

خلفاء الكفار يتمون الجناية :

وقد عجز الاحتلال الانجليزي عن تنفيذ كثير من مآربه في « الأزهر » خوفاً من الهياج الديني ، ولكن خلفاءهم من « الطبقة البديلة » قاموا بما عجز عنه الاحتلال ، تحت ستار الوطنية والإصلاح تارة ، وبسلاح البطش والاستبداد والإرهاب تارة أخرى !!

ونستطيع أن نذكر (مثالين) . وصلت الفاجعة فيهما إلى ذروتها ، وكانا امتداداً لما أسسه الاحتلال ، وبذر بذوره الخبيثة ، حتى أخرجت ثمارها النكدة في عهد « الاستقلال المزعوم » :

(المثال الأول) : إلغاء القضاء الشرعي جملة ، وإدماج محاكمه في « دوائر » تابعة (للمحاكم الأهلية) التي قامت من أول يوم على القانون الوضعي !!

لقد كان البدهي — يومئذ — أن يعود (الحكم الوطني المزعوم) بالأمة إلى أصولها وشريعتها ، فيدعم (المحاكم الشرعية) ، ويصلح منها ما أفسده الاحتلال والإهمال طوال سبعين سنة تقريباً !! وفي الوقت نفسه يمحو — ولو بالتدريج — آثار الاحتلال ، التي فرضها على أمتنا بالقهر والإذلال !

لكن — مع الأسف — كان التابع أفجر من المتبوع ، فقلب المشروع ، وعكس الموضوع ، وأقدم على جريمة وأد (المحاكم

الشرعية) بأخسّ الوسائل والأساليب^(١) !!

ثم تبع ذلك إلغاء «تخصص القضاء الشرعي» من كلية
الشرعية ، حتى تموت المحاكم الشرعية موتاً أبدياً في المستقبل ، ثم أمعن
الطاغية في فجوره ففرض على الأزهر من المناهج والدراسات ،
مانلمس آثاره المفزعة الآن في كل مكان !!..

(١) ألغيت (المحاكم الشرعية) انصرية بتاريخ ١٩٥٥/٩/٢١ م في عهد الاستبداد
العسكري الفشوم ، والذي جنى على الإسلام ودعائه من أجنابات ماعجز عن مثلها
العدو الكاشح !!

وكانت الذريعة إلى إلغاء المحاكم الشرعية جريمة أخرى من جرائم الطاغية الأثمة ، وهي
القضية التي أتهم فيها قاضيان شرعيان بالاتصال بالنساء المطلقات ، وحضور سهرات
ماجنة للفجور ، وشرب الخمر .. إلخ

وحين قبض على الشيخين : (الفيل ، وسيف) ، أمر الطاغية بنشر ذلك في صدر
الصحف اليومية بأبرز الخطوط والعنوانات ، وحين صدر ضدهما حكم بالسجن المؤبد
ألغى الطاغية المحاكم الشرعية جملة واحدة !!

وعلى فرض صحة هذا الاتهامات فما ذنب المحاكم الشرعية كلها ؟! لولا نية الجريمة التي
يبتها الطاغية وأعوانه في تليف هذه القضية ؟!

وواضح وجه الحسّة والتزييف في هذا ، حتى لا يرتفع صوت من الأزهر أو غيره مندداً
بجريمة الطواغيت الفجرة !!

وإذا تذكرنا أن الشيخين المتهمين كانا كبيرى السن في ذلك الوقت ، (لأن سن الإحالة
إلى المعاش يومها كانت سن السبعين بالنسبة للأزهريين) علمنا مدى الجنابة التي ارتكبتها
الطاغية وأعوانه ، وفضحوا بها — ظلماً وزوراً — الأزهر ، والعلماء ، والإسلام ،
والمسلمين !!

وحسبنا الله ونعم الوكيل .

(المثال الثاني) : إدخال « القانون الوضعي » في صلب البرامج الدراسية لكلية الشريعة بجامعة الأزهر ، وتسميتها : « كلية الشريعة والقانون » بموجب القانون المريب المعروف « بقانون تطوير الأزهر » !!

إن هذه التسمية التي فرضت على الجامع الإسلامي العتيق هي تسمية في غاية الخبث ، وتجمع بين المتناقضات : (الشريعة ، والقانون) ، أو : (الشرع الإلهي ، والوضع البشري) !!

وهذا عمل يقصد به تقريب الشقة بينهما ، وحل عقدة الرفض في الرؤوس والنفوس التي يخشى دائماً أن تنبعث فيها قيادة جادة لحركة تحكيم الشريعة ، وإعادتها إلى التفرد بالهيمنة على شئون الحياة الإسلامية .

إن دراسة القانون في كلية الشريعة — أو غيرها — يجب أن تكون بهدف واضح هو معرفته لاستخدامه في خدمة الشريعة ، والعمل لتنحيته عن مجال الهيمنة والتوجيه ، وضربه على بصر به ، ﴿ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةً وَيَكُونَ الدِّينُ كُلُّهُ لِلَّهِ ﴾ (١) .

أما دراسته بقصد مزجه بالشريعة ، وتحكيمة بين الناس ، والرضا الضمني أو الفعلي عنه ، وقبول وظائف السدانة له — كما هو حادث الآن في الأزهر — فهذا ما يأباه الإسلام كل الإباء ، ويحرمه كل التحريم ، بل هذا هو عين ماخطط له العدو المحتل من قديم ،

(١) سورة الأنفال : الآية ٣٩ .

تحقق على أيدي «الدعاة إلى أبواب جهنم»^(١) من «الطبقة البديلة»^(٢) التي سهرت على تربيتها — طويلاً — ديواتر الاحتلال والتبشير والاستشراق وآخرون من دونهم ؛ على ما بينه في إيجاز بإذن الله في النقطة التالية :



(١) هذا جزء من الحديث النبوي الذي رواه حذيفة بن اليمان رضى الله عنه ، وسبق تخريجه

ص ١١ .

(٢) ينص قانون السلطة القضائية المصرية ، رقم ٤٣ لسنة ١٩٦٥ م ، على تعيين حرجى كلية « الشريعة والقانون » في وظائف معاونين ووكلاء للنائب العام للأحوال الشخصية !!

وكان هذا استدراجاً خطيراً مقصود به :

أولاً : تحويل ولاء حملة الشريعة إلى القانون الوضعي بالتدريج .

ثانياً : ضمان التسليم مبدئياً ضمن الأحكام الشرعية إلى القانون ، مما يتيح للحكومات فرصة تعويرها أو تغييرها باعتبارها جزءاً من القانون لامن الدين !.

الثالث : التربية الجديدة للطبقة البديلة (١)

إن أي خطة يراد لها النجاح ، ثم الاستمرار والاستقرار بعده ، لابد أن تسير في تسلسل محكم ، يبدأ من تحديد الهدف بدقة ، ثم وضع خطة فكرية واضحة لتحقيقه ، ثم إخراجها إلى حيز التنفيذ بالدعوة والإقناع .. ثم التركيز على بعض الناس حتى يصل اقتناعه إلى درجة عالية ، تجعله نموذجاً ومؤثراً في غيره ، ثم العمل على ربط هؤلاء برباط فكري ، أو عملي حركي ، بحيث يصيرون بداية « النمط الجديد » في الحياة ، يشق طريقه ، ويستقطب الناس حوله .

وقد يقف هذا « النمط الجديد » عند حدود التأثير الفكري فقط ، أو يمضي في طريقه ، حتى يتبلور في جهاز تنفيذي ، يقوم على تطبيق خطته وحراستها ، ومدها إلى آفاق وأبعاد جديدة لا تبلغ بالفكر المجرد ..

الكفار يربون بدائلهم :

وهذا عين ماسلكه الكفار لتحطيم الإسلام في نفوس أتباعه ،

(١) قدمنا ذكر العنصر الأول ص ٧٣ - والثاني ص ٧٦ .

ونقلهم إلى طريق آخر « بتربية جديدة » تنبثق منها (طبقة بديلة)
تعين هذا الاحتلال في وجوده ، وتتولى قضية التغيير بجواره ، ثم
تحمل المهمة بعد رحيله . وتسلمها للأجيال الوريثة ، في صيغة أخرى
أخطر وأفحش ، حين تدخلها عليهم ، في ثياب « الذاتية الوطنية »
وكانها ليست حصاد مؤامرات خبيثة ، بُيت أمرها بليل الأحقاد ،
وسهر على رعايتها غلاة الماديين والمبشرين والمستشرقين وأضرابهم ممن
أعماهم التعصب أو الأطماع .

لذلك كان عماد هذه « التربية الجديدة » كما يقول الدكتور
إبراهيم اللبان : « إحلال مبدأي « اللادينية » ، و « العقلانية » محل
الهداية الدينية في الفكر والقانون والتربية وسواها ..

فقد رأى القوم الحمية الدينية التي قابلتهم بها المقاومة ، وعرفوا
أنها صادرة عن الروح الدينية ، وأيقنوا أن لاقرار لهم في البلاد التي
استعمروها إلا إذا قبضوا على هذه الروح في الأجيال المقبلة من
أهلها ، بل الواقع أن خطتهم كانت ترمي إلى أمرين أساسيين :

أحدهما : إنشاء جيل مجانس لهم في ثقافتهم ، ليسهل عليهم
التفاهم معه .

الثاني : أن تخلو الأجيال المقبلة من الدين ومن الثقافة الإسلامية
والحمية الدينية .

وكان لابد لبلوغ هذا الهدف من النظر في الوضع القائم في جو

« التربية والتعليم » ، وتغييره تغييراً أساسياً»^(١) .

وقد ذكرنا سابقاً مقدار تخوف الدارسين الأوروبيين من « العامل المجهول » الذي يجعل منشأتهم واهية الأساس في بلاد الإسلام ، والذي قد يقلب التيار رأساً على عقب.... إلخ^(٢) .

ولذلك كان التركيز على بناء هذه « الطبقة البديلة » قضية حياة أو موت بالنسبة للاحتلال .

ومن المعلوم أن التربية ليست هي فقط العلوم والمعارف أو التشريعات والقوانين ، وإنما هي مزيج مركب من عناصر شتى متداخلة ومتفاعلة ، وهي « وسط » تجري من خلالها عمليات التغيير ، و « محاضن » للعلاقات الإنسانية المختلفة ، حتى تفرخ بدفء الاهتمام والتقارب ، والاتصال المستمر ، وتؤثر في النهاية تأثيراً بالغاً في السلوك والفكر، من حيث يشعر الإنسان أو لا يشعر .

وسائل وغايات :

ومن ثم فلم يكن أحد هذه العوامل هو المؤثر المتفرد أو المطلق في الانقلاب الذي حدث ، وإنما تجمعها وإلفها ، وتربية الأجيال على تقبلها فكرياً وعملياً ، وخاصة الذين كانت تتول إلهيم قيادة أمهم — بكفاءتهم أو بتخطيط وتدبير العدو — كل هذا أعطى في النهاية لهذه التربية — ولطبقتها — قوة تدميرية هائلة ، لم يقف أمامها شيء !

(١) رسالة « التربية الدينية » السابق ذكرها .

(٢) انظر ص ٨٨ وما بعدها من هذا البحث .

وهذه العناصر المؤثرة في «التربية الجديدة» ، منها ما جاء عفواً نتيجة للوضع الحضاري ، ومنها ما جاء عمداً ، وقصداً بتخطيط العدو ، وكيد اللئيم ، ويمكن إجمال ماتم — عفوه وعمده — على النحو التالي :

١ — التقليد :

فكما قدمنا ، فاجأت صحوة أوروبا الهائلة المسلمين وهم في غفلة من أمرهم ، وجاءهم الاحتلال ومن بين يديه ومن خلفه « مخاريق » حضارية ، أخاذاً وفاتنة ، وزاد الطين بلة أن كان المسلمون في فترة « ركود حضاري » و « جمود اجتماعي » سببه الأول التفريط في تطبيق دينهم تطبيقاً صحيحاً ، ولذلك كانوا هم الطرف الضعيف في هذا الصدام ، وتبعاً لذلك كانت لديهم قابلية شديدة للتأثر ، وتشرب الأنماط الوافدة خاصة ذات البريق الاجتماعي ، ومن هنا بدأت دورة التقليد والمحاكاة ، ومضاهاة الكفار في كثير من عوائدهم وأحوالهم الفاسدة ، والانكباب على أشكال حياتهم وأساليبها المظهرية ، وقد دخل هذا كله على مشاعر الناس وأذواقهم وأخلاقهم مدخلاً ناعماً خادعاً ، باسم « التجديد » و « التقدمية » و « التهذيب والإصلاح » ، و « مسايرة العصر » ... إلخ .

وبداهة لم تكن عوائد الكفار شراً كلها ، ولكن قانون الاجتماع البشري ، وطبائع الأشياء تقضي بأن التقليد هنا لا يكون إلا في قشور الأشياء ، وليس في لباب الحضارة ، وقد سجل المؤرخون ، وعلماء

الاجتماع هذه الظاهرة مراراً ، ومنهم العلامة ابن خلدون ، الذي طبقها على أهل زمانه ، وصح استنتاجه تماماً وفي ذلك يقول رحمه الله :

« إن المغلوب مولع أبداً بالافتداء بالغالب في شعاره وزيه ، ونخلته وسائر أحواله وعوائده .. حتى إنه إذا كانت أمة تجاور أخرى ولها الغلب عليها ، فيسري إليهم من هذا التشبه والافتداء خطر كبير ، كما هو في الأندلس لهذا العهد مع أمم « الجلالقة » فإنك تجدهم يتشبهون بهم في ملابسهم وشاراتهم ، والكثير من عوائدهم وأحوالهم ، حتى في رسم التماثيل في الجدران والمصانع والبيوت ، حتى لقد يستشعر الناظر بعين الحكمة ، أنه من علامات « الاستيلاء » والأمر لله » (١) ..

وما قاله رحمه الله ، هو ماجرى مرة أخرى هنا حذو النعل بالنعل ، ولناخذ مثلاً عن « مصر » بعد فترة من الاحتلال ، وهو ينطبق تماماً على معظم بلاد المسلمين في ذلك الوقت ، يقول الدكتور محمد حسين في تصوير هذا :

« كان المترفون من الأغنياء ، يتهاقنون على مائتخرج المصانع الأوروبية من وسائل الترف ، حتى غدت توافه الكماليات ، من ألزم الضروريات وأصبح قصارى مايلغفه أحدهم من التمدن ، أن يتقن تقليد الأوروبيين في استعمال أدوات المائدة الأوروبية، وأن يحسن حفظ أساليبهم في استعمال الملابس ، والتمييز بين ماينبغي أن يستعمل

(١) مقدمة « ابن خلدون » الفصل ٢٣ ص ١٢٢ طبعة كتاب الشعب في القاهرة .

منها في مختلف المناسبات ، وأن يحسن استقبال النساء والتودد إليهن والتلطف في معاملتهن ، وأن يعود من سفرته السنوية إلى أوروبا ، حيث يقضي شهور الصيف ، ليتججح في ندوات الفارغين بمغامراته ، ويدير لسانه بألوان من الرطانات ، ثم يرسل أبنائه وبناته إلى المعاهد الأجنبية ، مباهاة .. وإتماماً لما يريد أن يسبغ على نفسه وعلى بيته من جو أوروبي خالص ، يظن أنه هو المقياس الحق للمدنية وللرقي «^(١) .

٢ — الاختلاط :

وهو وسيلة للتربية أخص من التقليد، وأكثر تركيزاً وأثراً في نقل العادات، واقتباس الأخلاق والسلوك .

وقد كثر اختلاط المسلمين بالكفار الأجانب من كل لون ، لكثرة الوافدين إلى بلادهم في ركاب الاحتلال ، وقد تعددت أيضاً شعب هذا الاختلاط : في الأعمال ، والوظائف ، والبيوت ، والنوادي ، والتجارة .. إلخ ، وامتد إلى روابط الصداقة أو الحياة الأسرية حين التزوج بأجنبيات.. أو الزمالة في أسفار الدراسة ، أو الرحلات .. إلخ .

وكان من أخطر وأخبث الأجواء التي تم فيها هذا الاختلاط التربوي هو الجو المدرسي بمناهجه الخبيثة ، وبيئته الخاصة ، المكيفة تكييفاً مخططاً مرسومًا ، والتي كان يشرف عليها الرهبان والراهبات ، والمبشرون المحترفون ، ورؤساء الإرساليات التبشيرية التي هيأوا فيها

(١) الاتجاهات الوطنية ج ٢ ص ١٨٤ .

لأطفال المسلمين مناخاً مزدوج التركيب : من فلسفة الحياة المسيحية ، وألوان العادات والأخلاق الأوروبية !

وكما قدمنا كان هؤلاء هم أبناء الأمراء والوزراء والأغنياء وأشباههم ممن تتول إليهم قيادة أمهم في شتى مجالات الحياة ، حتى ليندر أن تجد زعيماً — أو زعيمة — ممن تصلوا لقيادة التغيير الاجتماعي — المصادم للإسلام — إلا وهو خريج هذه المدارس الأجنبية ، أو متزوج بخريجة منها !!

وقد كان هذا الاختلاط في كثير من الأحيان مدعوماً بتخطيط ماهر ، ماهر ، ليؤدي دوره « التربوي » الخطير ، وليحقق التغيير المطلوب ، ويكفل له الاستمرار والاستقرار بواسطة هذه الطبقة الجديدة الممتدة في قلب أمتها .

وعلى سبيل المثال نجد اللورد « كرومر » عميد الاحتلال الإنجليزي في مصر ، يقترح في هذا الصدد : « أن يكون هناك نظام مدبر لعرض وجهات النظر ، التي تبدي عطفاً معقولاً على المصريين ، عن طريق أفراد من المشتغلين بالسياسة الشرقية — لاعتن طريق الحكومة — وكان يؤمل من وراء ذلك أن تجد أجيال المصريين المقبلة ، من الحكمة وسعة الأفق — حسب تعبيره — ما يحفزها للعمل بصبر وإخلاص ، مع الأوروبيين الذين يعطون عليهم ، حتى يستطيعوا متعاونين ، وضع مثل عليا جديدة تحمل محل المثل الأعلى للمسلم المتدين ، الذي لم يعد صالحاً لهذا الزمان حسب زعمه » (١) .

(١) الانجازات الوطنية ج ١ ص ٢٤١ ، نقل عن كتاب « كرومر » : Modern Egypt .

إفساد المرأة المسلمة :

ولقد كان من أفحش النتائج المدمرة ، بسبب هذا الاختلاط ، ظهور عادات وأخلاقيات جديدة في المجتمع ، تحاد الدين ، وتضاده ، أو تتنافر مع ذوقه وآذابه في أقل الأحوال !

وكان ما أصاب المرأة المسلمة من ذلك بالذات هو القتل الذي أسرع بالمجتمع نحو هاوية سحيقة ماله من قرار !

فلم تكن الدعوة إلى ما أسموه « تحرير المرأة » ! إلا مؤامرة رهيبة ، على البيت المسلم لتدميره من الأساس ، وتحويل مساره إلى وجهة مضادة لم تحدث قط في تاريخ المسلمين ، حتى في أشد فترات ضعفهم أو فسادهم أو هزيمتهم ، فكان من ذلك سفور المرأة المسلمة حتى العرى والتهتك ، ثم انحلالها الخلقي ، واندفاعها الفجائي إلى خارج البيت لتزاحم الرجال في كل مجال ، حتى مجالات الخلاعة والمجون والاستهتار !

لقد كانت المرأة في بلاد المسلمين — بلاشك — محتاجة إلى التعليم والثقافة والدراسة ، لكن حين تولى قضيتها المفسدون في الأرض ، قادوها إلى شر مهلك ، وجعلوها نكبة النكبات على أمتها ودينها ، وعلى مستقبل الأجيال التي تقوم بتربيتها ، وقد استغل المفسدون حاجة المرأة ، وغفلة الأمة ، وجهل قادتها ، أو فسوقهم عن أمر الله عز وجل ، وليس أدل على ذلك من قول المبشرة « أنا مليحان » وهي تتحدث عن الجامعة الأمريكية بالقاهرة :

« في صفوف كلية البنات بالقاهرة ، بنات آباؤهن باشوات

وبكوات ، وليس ثمة مكان آخر يمكن أن يجتمع فيه مثل هذا العدد من الفتيات المسلمات ، تحت النفوذ المسيحي ، وليس ثمة طريق إلى حصن الإسلام أقصر من هذه المدرسة ^(١) .

ولقد ذكرنا سابقاً تعهد الطاغية إسماعيل (حاكم مصر) لملوك أوروبا بأن يطلق (الحرية) للمرأة المسلمة ^(٢) ، لأنهم كانوا يدركون تماماً خطورة هذا الأمر ، وأهميته البالغة في إحداث الانقلاب الحاسم في مسار الإسلام ، ثم كفالة امتداد آثار هذا الانقلاب لآمد بعيدة لا يبلغونها عن غير هذا الطريق ، ولعل هذا هو عين ملاحظته المبشر المتعصب القس « زويمر » في وصاياه للمبشرين إذ يقول مركزاً آماله على هذا الجانب الاجتماعي الخطير :

« تبشير المسلمين يجب أن يكون بواسطة رسول من أنفسهم ، ومن بين صفوفهم ، لأن الشجرة يجب أن يقطعها أحد أعضائها ! ينبغي للمبشرين ألا يقنطوا إذا رأوا نتيجة تبشيرهم للمسلمين ضعيفة ، إذ من المحقق أن المسلمين قد نما في قلوبهم الميل الشديد إلى علوم الأوروبيين ، وتحرير النساء ^(٣) .

٣ — بين الغزل والتمكين :

وبمرور الوقت ، وتحت حراسة الاحتلال ، بدأ تيار

(١) انظر كتاب « أباطيل وأسمار » — المقالة الأخيرة بعنوان — « وأيضاً » ص ٢٩٠ منه .

(٢) انظر من هذا البحث ص ٦٣ .

(٣) الغارة على العالم الإسلامي ص ٨٠ .

« التفرنج » ، و « التغريب » يقوى ويشدد ، وتترى عليه أجيال وطلائع ، أخذ العدو الكافر يشد أزرها ، ويمكن لها في قلب أمتها ، ويفتح لها طريق القيادة والشهرة ، ويسلط عليها أضواء الدعاية لتصبح « النموذج » أو « المثال » الذي ينبغي تقليده ، واحتذاؤه ، والتشوق إلى مضاهاته !

ومع الأسف لم يستطع العالم الإسلامي — أو بعضه على الأقل — أن يضع لنفسه خطة رشيدة ، تؤدي إلى أخذ علوم الحضارة مع الاحتفاظ بمنهج الإسلام العظيم وطابعه في الحياة ، فتكون قوة إلى قوته ، وقد فعلت بعض الأمم الكافرة ماعجز عنه العالم الإسلامي ، (كاليابان) التي احتفظت بطابعها الذاتي ، في حين أخذت تزاحم الغرب في أعلى شعب العلوم والصناعات ، مع أنها لا تملك من وحي السماء مثل ما تملك من منهاج مبين ، أو كتاب منير !

على أنه من المؤكد أيضاً أن خطة « التربية » التي وضعها أعداء الإسلام لم تكن تسمح بالمرور خلالها لأخذ النافع المفيد من الحضارة ، إلا بعد أن تحدث التغيير المطلوب في باطن الفرد وظاهره ، وتستقطبه ، أو تمتصه من طريق أمتة الحقيقي ، بحيث يصبح في واقعه قوة جديدة تضاف إلى رصيد الاحتلال ، وتدعم وجوده واستمراره ، فكرياً وثقافياً واجتماعياً ، وإن بدا في الظاهر أن هذا الفرد من قوة التجديد في أمتة وبلاده !

حقاً لقد تعلم آلاف من أبناء المسلمين العلوم والطب والهندسة على يد أوروبا ، وربما أفادوا أمتهم مادياً ، ولكنهم في الحقيقة كانوا

نواة التدمير لطابع أمتهم الإسلامي ، وكانوا المسئولين عن تحويل مسارها ، وسقوطها في برائن الغزو الفكري ، سقوطاً لا مثيل له بين الأمم ، لأن حصونها غزيت من داخلها ، ناهيك عن تعلموا الفلسفة والآداب ، والفنون الماجنة ، والقانون ، وأمثالها من أسلحة الغزو الفكري المباشرة !

وقد ظهرت آثار الكارثة حين تولى هذا التيار قيادة أمته في شتى مجالات الحياة ، وتحت شعارات خادعة من « الإصلاح الاجتماعي » و « التقدم » و « الحضارة » .. إلخ .

ولقد صحب ذلك خطة ضاربة لعزل دعاة « الطابع الإسلامي » عن الحياة وحصرهم في أضيق نطاق وتصفيتهم وإبعادهم عن كل مجالات التأثير والتوجيه الحيوية !!

ونعود إلى ذكر أمثلة واقعية ، مما جرى في « مصر » أيضاً ، وهي « نماذج » لما حدث في بقية العالم الإسلامي ، المنكوب بحكم الكفار والمخدوعين بمحضرته الزائفة !!

« فقد أدى نظام التوظيف منذ عهد إسماعيل ، وفي عهد الاحتلال الانكليزي خاصة إلى اختفاء أصحاب الثقافة الدينية ، من ميدان الإصلاح ، وتخليفهم عن ركب الحياة ، وانحصار وظائفهم في المساجد ، وأصبحت الوظائف الحكومية وأدوات التوجيه الاجتماعي في أيدي أصحاب الثقافة الأوروبية ، الذين ينشئون مشاريعهم الاجتماعية والعمرانية على نمط ماتعلموه » (١) .

(١) راجع « الانجازات الوطنية في الأدب المعاصر » ج ١ ص ٢٢٥ .

« وأصرح من ذلك ماقرره « كرومر » — واضع أسس السياسة التي جرى عليها الاحتلال الانكليزي في مصر — من أن الإسلام بطبيعة تعاليمه ، عدو للحضارة الأوروبية ، وأن المسلم غير المتخلق بأخلاق الأوروبيين ، لا يقوى على حكم مصر في هذه الأيام ، لذلك سيكون المستقبل الوزاري للمصريين المترين تربية أوروبية »^(١) .

وتنفيذاً لهذه الخطة أخذ الاحتلال يفتح الطريق أمام أعوانه ، « الذين نشأهم في أحضانه صغاراً حتى إذا رضي عنهم ، ورضوا عنه استخلفهم على قومهم ينظرون بعينه ، ويفكرون بعقله ، وأصبحت مناصب الدولة المهمة في قبضة هذه العصابة من المتفرنجين ، ومن المتزوجين بالأجنبيات والانجليزيات منهن خاصة ، يوجهون الأمور ، ويخططون السياسات — والسياسة التعليمية خاصة — على مايرجو الانجليز ، وعلى مايجبون »^(٢) .

وهذه النتيجة المروعة هي عين ماسجله المستشرق الانكليزي « جب » ، واستنبط آثارها المزعجة من وقائع الأحوال المشاهدة في أوائل هذا القرن ، حيث كانت خطة قومه تطبق وتنفذ على أوسع نطاق ، يقول :

« ربما كانت أسلم نتيجة نقرها هي أن نقول : إن هناك طبقتين رئيسيتين : طبقة عليا تشمل أفرادا من القادة ولكنها تشمل أيضاً أكبر

(١) السابق ج ٢ ص ٢٥٤ وهو في الموضوعين ينقل عن كتاب « كرومر » Modern Egypt وتقريره عن سنة ١٩٠٦ .

(٢) المرجع السابق (الاتجاهات الوطنية) ج ٢ ص ٢٦٤ .

مراكز الفكر الإسلامي تأثيراً ، وفيها يظهر أثر الأفكار الغربية ظهوراً قوياً .

وطبقة دنيا تشمل جمهور الرأي الإسلامي ... وفيها نجد أثر الأفكار الغربية ضيقاً إلى حد ما ، وإن ندر أن تقاوم هذه الطبقة أفكار الغرب — إلا في جزيرة العرب — وما دام الزعماء هم الذين يعتد بهم — ولاسيما زعماء الجيل الناشئ — استطعنا أن نستببط أن الجزء الأكبر من العالم الإسلامي سيكون بعد قليل من الزمان قد أخذ نهائياً بوجهة نظر لاسلطان للدين عليها ، إلا إذا طرأ عامل جديد وغير اتجاه التيارات الموجودة إلى ناحية أخرى .. «^(١) .

٤ — التحول الذاتي :

على أن هناك هدفاً خطيراً تغياه أعداء الإسلام في تربية هذه « الطبقة البديلة » ، وربما كان يتفوق على كل ماعده من مؤثرات الاحتلال ، بل تبلغ خطورته أنه الآن هو أساس « الاستمرار » الذي تمضي على خطه مجتمعات المسلمين ، وكأن « عهد الاستقلال » ليس إلا امتداداً « للاحتلال » ، وإن اختلفت — فقط — الصور والأشكال !

وهذا الهدف هو غرس مُثل الحضارة الغربية وطرائقها وفلسفة حياتها في نفوس هذه الطبقة ، حتى تنشرها قلوبهم وتختلط بكيانهم ،

(١) راجع خاتمة كتاب : « وجهة الإسلام » ص ٢١٩ وما بعدها .

وتمثلونها خلقياً وفكرياً ، على المستوى الفردي والاجتماعي ، بحيث يصبح « المركب الأوروبي » هو مزاج هذه الطبقة النفسي والفكري ، وميزان تصرفاتها ومعارها الذي تقيس به الأمور ، أي أنه يتحول إلى « مركب ذاتي » تصدر عنه الأعمال تلقائياً ، وتطرد معه الحياة على نمط « الحضارة الأم » بغير إحساس بغربة ، أو نقل أو صفة وافدة !

ومن المعلوم أن بين الإسلام وكثير من الأنماط الأوروبية تبايناً عميقاً لاسبيل معه إلى لقاء ، وخاصة في أصول الفكر ، والاعتقاد ، وضروب السلوك والأخلاق ، وطرائق المعاملات ، وهو نفس الفارق بين حياة تنبعث من الإيمان ، وحياة تنبثق من الإلحاد ، ومع مايتبع ذلك في كل نواحي الحياة من سلوك ملتزم بمنهاج الله رب العالمين ، وسلوك متمرد على دينه الحق ، يدعو إلى التحرر من كل التزام ، إلا ماأشربه من هواه وأضاليل قاداته !!

ولذلك كانت هذه الطبقة البديلة هي الوسيلة المتفردة لحسم المعركة مع منهاج الإسلام ، وكلما أمعنت في « هضم » الحضارة الغربية وتحويلها إلى خلاياها — وخلايا أمتها — قَرَب ذلك أمد الصراع ، وقطع الطريق على مستقبل البعث الإسلامي المخوف !

ومن ثم كان التركيز ضارياً وعنيفاً في سبيل تحقيق هذا الأمر ، لتقوم الطبقة التي تأخذ « نهائياً بوجهة نظر لاسلطان للدين عليها » ، كما قال المستشرق « جب » ، وحينئذ يمكن « الجلاء » عن أرضها ، وتسليمها زمام السلطة فيها ، لأنها امتداد لفكر المحتل ، وتحقيق مجسد

لأهدافه الخبيثة ، وحتى إذا وقع بينه وبينها خلاف اليوم أو غداً فهر عداء « مصالح » يخضع للمساومة والتبادل ، وليس كما كان من قبل عداء « عقائد » وصدام « أفكار » و « مناهج » ، لاسبيل إلى حله إلا بما علموا وذاقوا عبر تاريخ الإسلام الطويل .

ومع الأسف أفلح أعداؤنا في تربية هذه « الطبقة » ، التي لوت — بدورها — زمام أمتها ، وأحلتها دار البوار، ولتستمع هنا إلى شهادة « جب » على قومه ، وما توصلوا إليه من نتائج بواسطة الطبقة البديلة ، يقول في بحث طويل : « أظهر علامة تميز العالم الإسلامي في هذه العقود الأولى من القرن العشرين ، ليست هي صيرورته إلى الأخذ بمنازع الغرب ، ولكن رغبته في ذلك .. » .

ثم يعدد أطوار ما أسماه « بالاستغراب » ، أي محاولة حمل العالم الإسلامي على الحضارة الغربية ، والتي يختمها بقوله :

« وإذا أردنا أن نعرف المقياس الصحيح الذي نسبر به غور التأثير الذي أحدثته الثقافة الغربية في العالم الإسلامي يجب أن ننفذ إلى لباب الأمور ، وأن ننفذ أولاً إلى الحركات التي تقوم على تشرب الأفكار الغربية تشرباً يبعث على الابتكار ، بعد استعداد داخلي قوي ، وكل ماعدا هذا فهو سطحي .

ومهما شق الأمر ، فلا بد من بذل الجهد لتبين تلك العناصر المنقولة ، التي تراكمت في العالم الإسلامي ، والتي كثيراً ماتكون قشوراً زائفة .

والتعليم هو أكبر العوامل التي تعمل على « الاستغراب »

والحق أنه العامل الوحيد — إن فهمنا من كلمة تعليم كل ماتدل عليه (المدرسي ، والفني والجامعي ، والأخذ بأساليب الغرب في الإدارة والسياسة ، وتربية الرأي العام بالصحافة وخاصة التي تتميز بنزعة علمانية غالبية كما نرى)^(١) .

وبعد :

فإذا أخذنا بأيدينا هذا المقياس : (التربية الجديدة ، والطبقة البديلة) فسوف لايشكل علينا تفسير شيء مما يموج به العالم الإسلامي اليوم من تناقضات وتخبطات ، حتى بعد أن استرد سلطانه السياسي على أرضه ، ودخل في مرحلة هذا الوهم الكبير التي أسموها « عهد الاستقلال » !

كذلك يعطينا هذا المقياس المدخل الصحيح لتشخيص الداء والدواء ، إذا صحت النيات لبناء العالم الإسلامي من جديد ، والعودة به إلى طريقه الأصيل ، ورسالته المتفردة ، على مانيته في إنجاز إن شاء الله تعالى ، في هذه الصفحات الختامية :



(١) انظر الموضوع بتمامه في كتابه « وجهة الإسلام » من ص ٢٠٨ — ٢١٧ .

النتائج

« عهد الاستقلال » ... إلى أين ؟

اتضح مما سبق أن « الاحتلال العسكري » لبلاد المسلمين كان سرطانياً مركباً امتد في كل اتجاه ، وتفرعت عنه أو تأكدت في ظله أنواع منه مثل :

١ — « الاحتلال السياسي » وذلك باستيلاء الكفار على مقاليد الحكم والإدارة في الأقاليم الإسلامية ، ومباشرة العمل فيها بأنفسهم أو بواسطة أعوانهم .

٢ — « الاحتلال الاقتصادي » الذي سيطروا به على منابع الثروات ، وجعلوا به بلاد المسلمين أسواقاً لتصريف بضائعهم ، أو مصدراً للمواد الخام اللازمة لبناء صناعاتهم .

٣ — « الاحتلال الفكري والاجتماعي » الذي فصلنا ذكره سابقاً ابتداء من الانحلال الخلقي ، والإبدال التشريعي ، وانتهاء بقيام الطبقة البديلة ، على أساس التربية الوافدة ، والتغيير الفكري الشامل !

الاستقلال الموهوم :

وقد أذن الله تعالى بانتهاء الاحتلال العسكري عن غالب ديار المسلمين ، وبذلك استردوا حريتهم السياسية والاقتصادية إلى حد كبير ، غير أنهم اعتبروا ذلك غاية الغايات في التحرير و « الاستقلال » .

وكان هذا الشعار وهماً كبيراً لُهِيت به جماهير المسلمين فقنعت بالأدنى من الأهداف ، دون الأجل الأكبر من مهمتها ورسالتها في هذه الحياة .

لقد كان البدهي المأمول أن يعي المسلمون السبب الأصلي فيما منوا به من كوارث الاحتلال ، وما خلفه فيهم من انهيار وانحلال ، فيكون يوم « الجلاء » في كل إقليم هو بداية العمل الجاد للاستقلال الحقيقي ، الذي يتمثل في العودة الشاملة إلى منهاج ربهم .

بيد أن الأمور سارت على غير هذا الأمل البدهي ، حتى تبدو لنا هذه المرحلة ، وكأنها مرحلة « الاستمرار » على موروثات عهد « الاحتلال » ، بل هي أحياناً تزيد عليها ، لأنها تتم على أيدي المسلمين أنفسهم ، حتى ليصح أن توصف بمرحلة « الاستبدال » أو « الاستحلال » !

لسنا بداهة نقول بتفضيل « الاحتلال » على « الاستقلال » ولكننا — بعد مراجعة شاملة ومستأنية لأحوال المسلمين — نقول جادين : أين هو الاستقلال ؟!

إن أمتنا لم تنزل محتلة القلاع ، مستباحة الحصون ، مشدودة بأغلق قيود التبعية ، في أخطر وأجل ما ينبغي أن تستقل به أمة ، وتميز به عما عداها ، أعني في الفكر والتشريع ، والأخلاق والسلوك ، والتربية والاتجاه ، والغايات والأهداف وغيرها من حصاد هذا الغزو الفكري ، وثمرات الانقلاب الاجتماعي التي تمت على أيدي الكفار ، ومن خالفهم من « الطبقة البديلة » .

استقلالنا دين :

وإذا كانت الأمم تحرص على استقلالها الفكري ، والاجتماعي ، بدافع من العزة القومية أو الكرامة الوطنية ، أو غيرها من دعاوى الجاهلية ، فإن المسألة عندنا تختلف تماماً ، لأن استقلالنا في هذه الأمور هو قضية عقيدة مقدسة ودين ، ومسألة وجود ومصير ، ومشرلية رسالة ودعوة ، وضرورة بعث وإنقاذ لأنفسنا وللعالمين ، ثم هي مهمة قيادة وهداية ، وتمكين لخط الوحي الإلهي المشرق ، وتميز له عن المناهج والنماذج البشرية التي سيطرت على الأرض ، وملأتها ضلالاً ، والحاداً ، وعناداً !

وهذا كله يأبى علينا التبعية كل الإباء ، بل إن التبعية هنا تصبح خيانة لرسالتنا ، وجناية على أمتنا ، وشروداً بالقافلة البشرية عن طريق ربها الواحد القهار .

ويزيد الأمر سوءاً الإصرار على المضى والاستمرار في خط الكفار ، وخاصة بعد أن تحررت الإرادة السياسية ، وسقطت معاذير

الإكراه بجلاء الجيوش العسكرية ، حتى أصبح الأمر — كما قلنا — « استبدالاً » بالاختيار ، يصل إلى حد الاستحسان والاستحلال !.

طبيعة المعركة :

ومن ثم فإن على « دعاة الإسلام » ، وأصحاب النمط الإسلامي للحياة ، أن يكونوا على تمام اليقظة ، والانتباه لطبيعة المرحلة التي يعيشون فيها ، وطبيعة المعركة التي يخوضونها ، وأنها معركة أشد شراسة وفداحة من معارك الكفاح والسلاح التي خاضتها أممهم لتحصل على استقلالها الجزئي المحدود .

ومن هنا أيضاً وجب ألا يضيعوا أوقاتهم في معارك جانبية ، أو في محاولات الترقيع ، وإنما يجب أن يلفتوا نظر أمتهم — دائماً — إلى واقعها الأليم ، ومصادمته للإسلام ، وأن هذا أثر مباشر من آثار الكفار ، حاكوا خيوطه ، ورسموا خطوطه ، عبر قرون من الحقد والتآمر والكيد للإسلام !!

ولا يجدي غير هذا السبيل في مواصلة استنفار عزائم أمتنا ، حتى تتخلص — باسم الإسلام وتحت رايته — من أخطر وأخبث مأمنيات به من ألوان الغزو والاحتلال ، والذي يكفي في التدليل على فظاعته ، أنه ترك المسلمين كالمریض الذي فقد مناعته ، وهزلت مقاومته ، واختلط عليه أمره ، فهو يستشفى بالداء ، ويفتر من الدواء ، ويتعرض كل يوم لجديد من الوباء .

فبراخي الأمر حتى أصبحت هملا يطمع فيها من يراها

بدائل جديدة :

وعلى دعاة الإسلام أن يتنبهوا جيداً إلى أن أعداءهم وحلفاءهم من « الطبقة البديلة » قد أفلحوا في غرس بواعث وأهداف جديدة في نفوس المسلمين ، بديلاً عن الإسلام ، كالتنكرات القومية والوطنية ، وقضايا الاقتصاد والإنتاج ، والاستهلاك والتوزيع ، ودعاوي الاشتراكية ، أو غيرها من الدعوات المذهبية التي روجوا لها ، وبنوا حولها زعامات وقيادات ، لتستقطب الناس عن راية الإسلام بعدما تبين شمول منهجه ، وسمو شريعته ، وتفوقه في وضع الحلول لمعضلات المجتمعات ومشكلات الحياة .

موت الإحساس بآثار الكفار :

على أن أخطر مايجب التنبيه إليه هو موت الشعور — في الأجيال الوريثة — بمصادر وأصول التربية ، التي يدرجون عليها في كل نواحي الحياة ، لأن صفة « الذاتية » في التحول والتغير ، أصبحت — في ظل الاستقلال الجزئي ، ذاتية « اندماج وتفاعل » اختفت فيها أصولها الوافدة ، وبرزت فيها معالم وطنية خادعة ، ومن ثم غدت الأجيال المتعاقبة تدرج عليها في غفلة ، وموات ، لاتستشعر حرجاً ولا تبدي سخطاً ، ولا تنكر ولا تعرف إلا ماربيت عليه من قيم وافدة ومثل غريبة ، ومع علمها في كثير من الأحيان بمصادمتها لدينها وكتاب ربها !

ولنأخذ من ذلك — على سبيل المثال — الطبقات المتعاقبة من

أصحاب « القانون الوضعي » ، وملايين المسلمات من الكاسيات العاريات ، ومحترفات اللهو والمجانة ، والألوف المؤلفة الذين يعبون عباً من فكر الحضارة المادية الملحدة ، ويستقون من مستنقعات ثقافتها ، وتصوراتها وفلسفاتها الجاهلية ، ثم يقذفون به أمتهم في كل ميدان ، كالصحافة والتعليم و « الفنون » المختلفة : من التمثيل والغناء ، والشعر والقصة ، والأدب والفلسفة .. إلخ .

والعجب — كل العجب — أن يمضي هذا كله الآن بلا حرج ، بل ويقبل عليه الناس في شوق وارتياح ، ويظل يربو حتى يغلب على كل ماعداه ، ويغمر المجتمعات من أقطارها إذ تمده روافد لانتضب ، أولها في ديار الكفار ، وآخرها في قلوب إخوانهم من « الطبقات البديلة » ممن بدّلوا دينهم ، وصاروا شيعاً بين ركام المناهج والتماذج والشرائع والاتجاهات والمذاهب ، وإن كانوا في النهاية يمثلون تياراً واحداً ، تشابهت قلوبهم في حرب الإسلام ، والانصراف عن قيمه وتوجيهاته ، واختيار أي صيغة أخرى تخالفه وتضاده !

الجهاد سبيلنا :

وما كان هذا كله ليستمر بعد رحيل الكفار عن ديار الإسلام ، لولا أن هيأوا له اطراد النمو والتأثير ، وانتشار السلطان والأنصار ، حتى ليستشعر دعاة الإسلام بينهم القلة والغربة ، وهذا عكس للموضوع وقلب للمشروع يحتاج إلى جهاد — أي جهاد — حتى يعتدل الميزان وتحسم القضية — بإذن الله — لصالح الإسلام ﴿ والله غالب على أمره ولكن أكثر الناس لا يعلمون ﴾ يوسف : ٢١ .

خاتمة

الداء والدواء :

ننبه في ختام هذا العرض والتحليل ، إلى أننا لانرمي إلى جانبيهما السلبي ، الذي يستهدف محاكمة المنحرفين وإدانتهم ، والتنديد بما جلبوه على أمتهم ودينهم في شتى مجالات الحياة ، وإنما هدفنا الأصيل هو : تشخيص الداء ومعرفة أسبابه ، ومضاعفاته ، حتى يمكن تطبيب هذه الأمة على بصيرة ، ووصف الدواء الناجع لها ، من هدى القرآن ، وشرائع الإسلام ، وإرث النبوة الخاتمة .

مقترحات :

لذلك أختتم هذا البحث ببعض مقترحات ، رجاء أن يجد فيها مؤتمر الموقر ما يصلح لأن يضمها توصياته الختامية ، ويدعو المسلمين إلى وضعها موضع التنفيذ الواسع الناجز ، الذي يردّ عن أمتنا كيد قرون ، ويستنقذها من أخطر وأخبث مامنيت به عبر تاريخها الطويل :

١ - دعوة أصحاب الاتجاه الإسلامي — على اختلاف

مواقعهم — إلى العمل الجاد لإبراز « خطة بديلة » في مجال التربية والتعليم ، والفكر والثقافة ، يمكن بواسطتها إعادة صياغة الفرد المسلم ، والبيت الإسلامي ، والأمة المسلمة ، وفق معايير الإسلام .

وأساس هذه الخطة : أخذ الإسلام مأخذاً شمولياً ، باعتباره منهاجاً كلياً كاملاً للحياة ، أي من حيث هو عقيدة وشرعة ونظام ، شرفنا الله تعالى به ، وكلفنا حمل أمانته ، وألزمنا تطبيقه ، ودعوة العالمين إليه ، وجعله قضية وجودنا ومهمة حياتنا ، ويجمعنا للحساب والجزاء على أساسه .

وروح هذه الخطة : تربية الأجيال على الاعتزاز المطلق بدينها ، واستشعار عظمتها وسموه ، وسبقه وتفرده عما لدى البشر من حطام الفكر ، وركام المذاهب والشرائع كما قال ربنا بحق :

﴿ إن هذا القرآن يهدي للتي هي أقوم ﴾ الإسراء : ٩

﴿ اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي ورضيت لكم الإسلام ديناً ﴾ المائدة : ٣ .

٢ — ضرورة إبراز مادة علمية دراسية جديدة باسم « الغزو الفكري » أو ماشاكلة من الأسماء ، تشرح دور هذا الغزو وتاريخه ، وظروفه ومدى تأثيره في حياة المسلمين المعاصرة : فكرياً وقانونياً ، وتعليمياً .. إلخ . وتقرر هذه المادة على مراحل التعليم المختلفة — كل بقدر مايناسبه — ابتداء من السنة السادسة الابتدائية ، وانتهاء بآخر مراحل التعليم الجامعي .

ونقترح في هذا الصدد إسناد تدريسها إلى مدرسي المواد الدينية في المدارس ، وإلى العناصر الموثوق في اتجاهها الإسلامي من أساتذة الكليات والمعاهد العليا .

وتدريس هذه المادة ضرورة دينية وقومية ، حتى تضع الأجيال الجديدة يدها على مصادر الداء الذي يغشى حياتها ، وترى في نفوسها النفرة من كل ما يخالف دينها من العادات والتقاليد والأفكار المستجلبة ، وخاصة إذا أبرز لهذه الأجيال طرق التآمر والغدر والاحتيال التي اتبعت في جلب هذا الداء لأمتها ، وما صاحبها من استغلال أصعب الظروف الإنسانية واستعمال أخس الوسائل (كما بيّنا في هذا البحث طرفاً منه) !

٣ — دعوة الكتاب والأدباء والقصاصين الإسلاميين ، وأمثالهم إلى التركيز على إبراز هذا الجانب ، بمختلف الفنون حتى يحدث تياراً مضاداً لآثار الغزو الفكري ، كاشفاً دوره التخريبي المدمر ، وخاصة في جنايته على المرأة المسلمة التي تربي الأجيال الآن — في غفلة — على وفق مارييت عليه هي من فساد القيم والمعايير !!

٤ — وندعو المؤسسات الإسلامية كالجامعات والهيئات إلى تنظيم هذا ، وإخراجه إلى حيز الوجود ، بتوجيه الرسائل العلمية إلى دراسته ، وتنظيم المسابقات والجوائز لأحسن كتاب أو قصة أو دراسة في موضوعات مختارة ، ترمي إلى عمل متكامل ، يحس بأثره الفرد والمجتمع ، وينشر على أوسع نطاق حتى يتكافأ — على الأقل — مع درجة شيوع الباطل واستعلانه .

٥ - دعوة المؤسسات الإسلامية - في كل مكان - إلى الانتباه البالغ لآثار الغزو الفكري ، وموجاته المستحدثة ، وأن تكون هذه المؤسسات نموذجاً يحتذى في محاربتها ، لا في مزاولتها .

وعلى سبيل المثال ينبغي على الجامعات ذات الطابع الإسلامي ، أن تتجه إلى تدريس العلوم باللغة العربية ، وأن تعمل جادة على وضع التراجم الأصيلة ، والمراجع الوثيقة بهذه اللغة ، وأن تنبذ تكريم النظريات التي لم تثبت علمياً ، والتي تعلم لأبناء المسلمين .. باعتبارها « حقائق علمية » ، كنظرية دارون ، وكثير من نظريات علم النفس والاجتماع .. إلخ

إن عمل الجامعات العربية لتحقيق هذا هو خطوة عظيمة الشأن في سبيل جمع الأمة المسلمة من جديد على لغة القرآن ، لتقوم بديلاً عن لغات أعداء الإسلام التي تحتكر حقول التعليم العلمي في ديار المسلمين !

ولسنا ندعو إلى إهمال إتقان اللغات الحية في العالم المعاصر وخاصة ذات المستوى الباهر في علوم المادة ، والتي يوجب علينا الإسلام أخذها والتفوق فيها .

وإنما ينبغي التفريق بين مأخذين :

مأخذ الفناء في لغة العدو وعلومه ونظرياته وفلسفاته .. إلخ .

ومأخذ الانتقاء النافع ، الذي يقبل أو يرفض - على بصيرة - وفق معايير ثابتة ، وموازين مستتيرة ، وخاصة في الجامعات ذات الكيان الإسلامي البحت ، أو ذات الارتباط الإسلامي الواضح .

ومن تمام هذا — بل من لبه — أننا ندعو « جامعة الأزهر » — باعتبارها المعهد الإسلامي العريق — إلى إلغاء لفظ « القانون » من اسم كليتها العظيمة (كلية الشريعة) ، وإلى تغيير النظرة التي يدرس بها « القانون » الآن فيها ، إذ يجب أن ترى في خريجها كل معاني رفضه وعدم مهادنته — باعتباره غير شريعة الله — لأن تؤهلهم للحكم به بعد تخرجهم ، وتعين الممتازين منهم في وظائف « وكلاء نيابة » وما شاكلها ، وهذه رشوة على الدين تأبى عليها « الأزهر » طوال تاريخه ، وكذلك يجب أن يكون .. خاصة أنه قد زال عهد الطاغية الذي فرض هذا الأثم .

٦ — دعوة المسلمين في كل مكان ، إلى العمل الجاد للتخلص من آثار أعدائهم ، وخاصة في ميدان التشريع والقانون ، ونبذ التسويف وانتحال الأعذار الواهية ، كذلك الحجة الداحضة التي يتذرع بها أصحاب القانون الوضعي ومن على شاكلتهم من زعمهم أن الشريعة الإسلامية لا يمكن تطبيقها الآن إلا بعد إعداد ، وتدرج ، وفترة انتقال .. إلخ .

ولقد رأينا في هذا البحث ، كيف أدخلت شرائع الكفار في بلادنا طفرة ، وبأوامر إدارية كما حدث في مصر سنة ١٨٧٥ ، ١٨٨٣ م ، وكما حدث في تركيا^(١) عام ١٩٢٤ — ١٩٢٨ م مع أنها شرائع غريبة اللسان والمنشأ والمنزع ، ولم يقل قائل حينئذ بفترة

(١) كان آخر عهد تركيا بشريعة الإسلام صدور قانونها رقم ١٢٢٢ . في ١٠/٤/١٩٢٨ الذي ألغى كل أثر للشريعة ، بعد أن ظلت تحكم بها أكثر من خمسة قرون ! وإنها لعائدة إليها بإذن الله ، ولو كره الكافرون .

انتقال ، أو تدرج ، أو مراعاة الظروف ... إلخ .

أما شريعة الإسلام فهي دين هذه الأمم ، وكلمة ربها ، وهدى كتابه الذي يتعبدون بتلاوته بكرة وعشيا ، ثم هي قانونها العام والخاص طوال تاريخها ، وهي لم تنسلخ عنها إلا بكيد أعدائها ، وفي غفلة بعض سادتها وكبرائها !

ومن ثم فالعودة إليها أسهل وأيسر ، وهذا هو الأمر الطبيعي فضلاً عن أنه أمر الله الملزم ، وحكمه القاطع ، الذي تهون أمام تنفيذه كل عقبة ، إن وجدت ، ولا وجود لهذه العقبات في الحقيقة ، وإنما هي محاولات ومزاعم أعداء الله ، ثم ضحايا الغزو الفكري من أمتنا ﴿ يريدون أن يطفئوا نور الله بأفواههم ويأبى الله إلا أن يتم نوره ولو كره الكافرون ﴾ التوبة : ٣٢ .

اللهم حقّي وعدك الحق ، ووفق العاملين لدينك في كل مكان ، وتقبل منا إنك أنت السميع العليم ، واجعل عملنا كله خالصاً لوجهك الكريم .

واخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين .

وصلى الله على نبينا محمد وعلى آله وأصحابه وسلم تسليماً .

كتبه الفقير إلى الله تعالى

عبد الستار فتح الله سعيد

مراجع البحث^(١)

- ١ — القرآن الكريم .
- ٢ — بعض كتب السنة المطهرة (ورد ذكرها في الهوامش) .
- ٣ — أسد الغابة في معرفة الصحابة ، لابن الأثير (طبعة طهران) .
- ٤ — السيرة النبوية ، لابن هشام ، تحقيق مصطفى السقا وزمليه .
- ٥ — تفسير القرطبي (الجامع لأحكام القرآن) .
- ٦ — نظرات في الاستدلال القرآني (للمؤلف) .
- ٧ — فقه السنة (ج ١) للشيخ سيد سابق .
- ٨ — الفارة على العالم الإسلامي ، تأليف : أ . ل . شاتليه .
نقله إلى العربية : مساعد اليافي ، ومحب الدين الخطيب (طبعة ثانية) (جدة) .
- ٩ — الفكر الإسلامي الحديث وصلته بالاستعمار الغربي ، د . محمد البهي (ط : ٤) .

(١) كل هذه المراجع مطبوعة في مصر إلا مانبه عليه منها ، وقد رتب حسب ورودها في افوامش .

- ١٠ - الاتجاهات الوطنية في الأدب المعاصر ، د . محمد محمد حسين (ط : ٢) .
- ١١ - أصول قانون العقوبات في الدول العربية ، د . محمود مصطفى .
- ١٢ - « قاسم أمين » د . ماهر حسن فهمي .
- ١٣ - تاريخ العرب الحديث والمعاصر ، د . أحمد عزت عبد الكريم وزملاؤه .
- ١٤ - نظرية القانون ، د . عبد الفتاح عبد الباقي .
- ١٥ - بين الأمس واليوم ، للشيخ حسن البنا (بيروت) .
- ١٦ - التربية الدينية التي يحتاجها العالم الإسلامي ، د . إبراهيم الببان (رسالة صغيرة نشرت ملحقاً لمجلة الأزهر عام ١٣٩٣ هـ) .
- ١٧ - التبشير والاستعمار ، د . مصطفى الخالدي ، وعمر فروخ (ط : ٥) بيروت .
- ١٨ - وجهة الإسلام ، تأليف المستشرق « جب » وآخرين . ترجمه محمد عبد الهادي أبو ريده .
- ١٩ - نقض (كتاب في الشعر الجاهلي) تأليف الشيخ محمد الخضر حسين .
- ٢٠ - المنهاج القرآني في التشريع - (رسالة دكتوراه لصاحب هذا البحث) لم تطبع .
- ٢١ - المعاملات في الإسلام (للمؤلف) .
- ٢٢ - مبادئ نظام الحكم في الإسلام ، د . عبد الحميد متولي .

- ٢٣ — الجهاد في سبيل الله ، لأبي الاعلى المودودي .
- ٢٤ — القانون الإسلامي وطرق تنفيذه ، للأستاذ المودودي
(دمشق) .
- ٢٥ — موقف العقل والعلم والدين من رب العالمين ، تأليف شيخ
الإسلام مصطفى صبري .
- ٢٦ — الحمد لله هذه حياتي (ج ١) الدكتور عبد الحلیم محمود
(طبعة ٣ — ١٩٨٥ م) .
- ٢٧ — مقدمة ابن خلدون .
- ٢٨ — أباطيل وأسمار ، محمود محمد شاكر .
- ٢٩ — دوريات متفرقة مثل : (مجلة الأزهر ، مجلة الثقافة
المصرية) .

* * *

الفهرس

الموضوع	الصفحة
مقدمة الطبعة الرابعة	٣
فاتحة الكتاب	١٧
أولاً : تمهيد عام	٢٠
معنى الغزو الفكرى ، وقدمه ، وشموله	٢٠
الغزو بالحق	٢٢
تنديد القرآن بالغزو الضال	٢٤
ثانياً : غزو قديم	٣٠
الإسرائيليات والفلسفة	٣٠
انحراف علم الكلام	٣٢
العلم غير الثقافة	٣٤
دورة الجمود الحضاري	٣٥
حمل الفكر والفقہ	٣٥
ثالثاً : طور جديد خبيث	٣٧
النهضة الأوروبية	٣٧

٣٨	الحقد على الإسلام
٣٩	التزوير الفكري المنظم
٤٢	رابعاً : مراحل الغزو الفكري
٤٣	المرحلة الأولى : الغزو الفكري في فترة الانحلال
٤٤	الغزو الفكري امتداد للحروب الصليبية
٤٥	الكنيسة تحالف الاتحاد
٤٧	أهم الوسائل :
٤٧	١ — التعليم والثقافة الأجنبية
٥٠	مثالان صارخان :
٥٠	المثال الأول
٥١	المثال الثاني
٥٢	دور أمريكا في حماية التبشير
٥٣	جرائم المبشرين تحت ستار التعليم
٥٤	خطبة زويمر
٥٥	٢ — محاربة الشريعة الإسلامية
٥٧	المحاكم والقوانين الجديدة
٥٨	نقض العقوبات الإسلامية
٥٩	مثال تطبيقي لهذا الغزو
٦١	التركيز على مصر

٦٢	مصرع أمة
٦٣	أ — المحاكم القنصلية
٦٤	ب — المحاكم المختلطة
٦٦	ج — المحاكم الأهلية
٦٨	المرحلة الثانية : الغزو الفكري في فترة الاحتلال
٦٨	فوراق بين الغارتين
٧٠	انقلاب خطير
٧١	عناصر الانقلاب :
٧٣	الأول : الانحلال الخلقي
٧٦	الثاني : الغزو الفكري الشامل
٧٧	١ — الشعبة التعليمية
٧٨	حرب على الدين واللغة
٨١	دور الابتعاث في التدمير
٨٣	شاهد على قومه
٨٥	٢ — الشعبة الثقافية
٨٦	سر تحالف الأضداد
٨٦	بدائل عن الإسلام
٨٨	الكفار لا يخافون إلا الإسلام
٨٩	تربية الزعامات على غير الإسلام

٩٠	من أساليب الغزو الرهيب :
٩٠	أ — سيل المطبوعات
	ب — الشبهات الدينية والطعن في الإسلام
٩٣ ..	(المبشرون — والمستشرقون)
٩٧	خطة المستشرقين في الهجوم على الإسلام وآثارها
٩٧	من آثار الغزو الاستشراقي
١٠٥	٣ — الشبهة التشريعية
١٠٧	هدم الشريعة في ظل الاحتلال الكافر
١٠٨	أمثلة صارخة :
١٠٨	الأول : في الهند
١٠٩	الثاني : في مصر
١١٠	الحكم بغير ما أنزل الله
١١١	القانون الفرنسي في حماية الانجليز ؟
١١٢	الثالث : في تركيا
١١٣	دور الكفار في الردة التركية
١١٤	شروط كرزون الأربعة
١١٥	ودور الغزو الفكري
١١٦	قانون الكفار في ثياب وطنية
١١٨	أهداف هذا الانقلاب التشريعي وآثاره
١١٩	تغيير المجتمع تحت مظلة القانون الوافد

١٢٣	هدم الإسلام في جانبه القانوني العملي
١٢٥	التعليم الحقوقي
١٢٩	مشروعية الكفر
١٢٩	تطوير الأزهر وشيوخه
١٣٢	خلفاء الكفار يتمون الجناية :
١٣٢	إلغاء المحاكم الشرعية بأدناً الوسائل
١٣٤	كلية الشريعة والقانون الوضعي
١٣٦	العنصر الثالث : التربية الجديدة للطبقة البديلة
١٣٦	الكفار يربون بدائلهم
١٣٨	وسائل وغايات :
١٣٩	١ — التقليد
١٤١	٢ — الاختلاط
١٤٣	إفساد المرأة المسلمة
١٤٤	٣ — بين العزل والتمكين
١٤٨	٤ — التحول الذاتي
١٥٢	النتائج : عهد الاستقلال .. إلى أين ؟!
١٥٣	الاستقلال الموهوم
١٥٤	استقلالنا دين
١٥٥	طبيعة المعركة

الموضوع	الصفحة
---------	--------

بدائل جديدة	١٥٦
موت الإحساس بآثار الكفار	١٥٦
الجهاد سبيلنا	١٥٧
خاتمة	١٥٨
الداء والدواء	١٥٨
مقترحات	١٥٨
مراجع البحث	١٦٤
فهرس الكتاب	١٦٧

تم بحمد الله

رقم الإيداع بدار الكتب ٥٩٩٣ / ٨٧

الترقيم الدولي ١ - ٢٧ - ١٤٢١ - ٩٧٧

مطابع الوفاء - المنصورة

شارع الإمام محمد عبده المواجه لكلية الآداب

ت : ٣٤٢٧٢١ - ص.ب : ٢٣٠

تلکس : ٢٤٠٠٤ UN DWFA